

التعصب الديني في القرنين الرابع والخامس الهجريين في الأندلس

د. عمر راجح شيخ إبراهيم^{1*}

¹قسم التاريخ، كلية الآداب، جامعة الخليل، الخليل، فلسطين

تاريخ الإرسال (2015/02/08)، تاريخ قبول النشر (2015/05/26)

ملخص البحث

تناول هذا البحث صور مختلفة من التعصب والجدل الديني في الأندلس، سواء بين أصحاب الديانة الواحدة من خلال التعصب المذهبي أو بين أصحاب الديانات مع بعضها البعض، من خلال التحريض والمساس بالمعتقدات، فكان التعصب الإسلامي نتيجة الهجمة الشرسة للنصارى واليهود على الإسلام. لذلك أورد المسلمون الكثير من الأحاديث التي تبين فضل الأندلس والجهاد فيه، وذلك لحث المسلمين على الدفاع عنه، وفي سبيل هذه الغاية لم يسمح المسلمون في الأندلس لأي مذهب آخر بالانتشار، من أجل استمرار وحدة المسلمين وقدرتهم على مواجهة القوى الحاكمة على الإسلام والمسلمين. كما تناول البحث بعض من صور الجدل بين المسلمين والنصارى واليهود في العقائد، ثم تناول البحث أقوى صور التعصب وهو الصراع السياسي العسكري، فعندما يستخدم أي طرف القوة العسكرية للقضاء على الآخر، فإن ذلك يُعدّ -حسب رأيي- أقوى صور التعصب والكراهية.

الكلمات المفتاحية: التعصب، الأندلس، تاريخ.

Religious Fanaticism in the 4th and 5th Centuries A.D in Andalusia

Abstract

This research deals with different images of intolerance and religious controversy in Andalusia whether between the followers of one religion through fanaticism or between the followers of religion with each other through misrepresentation and prejudice beliefs. The Islamic fanaticism was as a result of the onslaught of the Christians and Jews on Islam, so Muslims mentioned lots of Ahadeth that adopt the significance of Andalusia and in which to urge Muslims to defend it. And for this end Muslims prevent Muslims any doctrine to be follow other than the Malik doctrine. Muslims and the ability to confront the enemy of Islam.

This research also addressed same of the controversy forms among Muslims Christians and Jews in faith, then the research discussed the strongest form of bigotry which is intellectual and political conflict, so when any party uses any military forces to eliminate the other, this is in my opinion one of the strongest form of intolerance and hatred.

Keywords: Fanaticism, Andalus, History.

* البريد الإلكتروني للباحث المرسل: omarsh@hebron.edu

المقدمة:

مع بداية الدعوة إلى الدين الإسلامي، بدأت التحديات والمقاومة، لمنع انتشاره من جهات متعددة، تمثلت أولاً بعبدية الأوثان، ثم أصحاب الرسالات السماوية، الذين وجدوا في الدعوة الجديدة تقويضاً لبنائهم، خاصة بعد أن لمسوا صدق الدعوة، وصدق الكلمة التي جاء بها محمد (ﷺ).

ورغم أن مقاومة الوثنيين العرب لهذه الدعوة شديدة، إلا أن مقاومة أهل الكتاب كانت أشد، لكن الله أبى إلا أن يتم نوره، وانتصرت الدعوة وتغلغت في النفوس، وعمت شبه الجزيرة وجاوزتها لتطفئ نار فارس، وتظهر التحريف والتزوير، الذي كُتب على لسان موسى وعيسى عليهما السلام، وحقق العرب المسلمون تحت لواء الإسلام انتصارات عظيمة، بها شيدوا إمبراطورية إسلامية واسعة الأرجاء، مسطرين بذلك نهاية إمبراطوريات ودول كانت عظيمة، فخضعت شعوبها إلى حكم العرب المسلمين بعد دخول البعض في الإسلام، وبقاء الآخر على دينة السابق.

إلا أن بعض من دخل في الإسلام، كان يهدف إلى محاربته ومحاولة تقويضه من الداخل بعد أن ظهر فشلهم عسكرياً لهزيمته ومنع انتشاره، بذلك بدأت تظهر الفئات الحاكمة على الإسلام.

وأمام عجز الشعوب المغلوبة النيل من الإسلام والعرب فكرياً، وثقافياً لجأوا إلى بث روح العداء للإسلام، والتعصب لجنسهم، ودينهم، واستنصروا بإخوانهم في الدين في أنحاء مختلفة من العالم، كما فعل النصارى الإسبان، فكانت حربهم مع المسلمين حرباً لنصرة النصرانية ضد الإسلام، فوقفت البابوية مع الإسبان بكل قوتها مادياً ومعنوياً، وشنوا حرباً شعواء ضد الوجود الإسلامي في الأندلس، وظهر الحقد المتأصل في نفوسهم من خلال معاملة المسلمين بعد احتلال مدنهم، وهدم مساجدهم، وحرمانهم من أداء الشعائر الإسلامية، بل وفي النهاية إجبارهم على التنصر.

لذلك كان التعصب في الأندلس أحد أنواع الصراع السياسي المغلف بغلاف ديني، لما للدين من قدرة على مداعبة عواطف الناس، وتأليبهم، وتسييرهم إلى الأهداف المنشودة، فنشط القساوسة والرهبان في تنمية الحقد الديني على المسلمين، لمحاربتهم، والقضاء عليهم، فكانت الحملات الصليبية المختلفة، ونشط في الجانب الآخر فقهاء المسلمين الداعين للوقوف أمام الهجمات الصليبية، من أجل نصرته الدين الإسلامي. لذلك فإن هذه الدولة تحاول إبراز صور التعصب الديني، وأثر ذلك على الصراع الفكري بين التيارات الدينية المكونة للمجتمع الأندلسي. حيث حرص النصارى على تنمية العاطفة الدينية لحشد الطاقات للقضاء على المسلمين وإخراجهم من الأندلس، فواجه المسلمون ذلك من خلال إثارة الحماس الديني في النفوس عن طريق نظم أحاديث تبين فضل الأندلس والجهاد فيه.

كما تناولت الدراسة التعصب المذهبي عند المسلمين، وذلك من خلال تعصبهم لمذهب مالك، وعدم السماح للمذاهب الأخرى بالانتشار في الأندلس، وبيّنت الدراسة أسباب هذا التعصب وإفرازاته. ثم تناولت الدراسة التعصب بين أصحاب الديانات السماوية الثلاث من خلال الجدل بالطنن والدفاع عن العقائد.

أما الصراع السياسي والعسكري فكان المبحث الأخير الذي سلط الضوء على التعصب الديني، بل يُعدّ من أقوى صور التعصب الديني، لأنه قاد حشد الجيوش والمواجهة العسكرية بين الأطراف.

المبحث الأول: الحديث والفقه

في القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي، كانت العمليات العسكرية، والمعارك بين المسلمين والنصارى في الأندلس، تأخذ صفة الحرب الدينية، وحرص الطرفان على تنمية العاطفة الدينية لحفز الملوك، والأمراء، والناس على المشاركة بهذه الحروب، فكانت سياسة النصارى تتمثل بحرق المساجد وتدميرها، والتتمثيل بجثث القتلى المسلمين، واشترك الرهبان والقساوسة في المعارك لإثارة الحماس الديني

في النفوس، وحاول النصارى إغراء الناس بالارتداد عن الدين الإسلامي، وقام الفقهاء المسلمون بالدعوة إلى الجهاد، لذلك وفد على الأندلس المسلمون الراغبون في الجهاد، كما وفد على شمال إسبانيا كثير من نصارى أوروبا، لمجاهدة الإسلام أو لجمع عظام الشهداء المسيحيين (عبد الحليم، د.ت: 214)، كما كان للعوامل الدينية والقومية دوراً في اتحاد ليون، ونبرة، وقشتالة، وأحياناً برشلونة، ليتمكنوا من مقاومة الخطر الإسلامي والقضاء عليه (عنان، 1988: 53).

وأمام هذا التعصب الديني النصراني، المتمثل في توجيه الطاقات للقضاء على الإسلام والوجود الإسلامي، حرص فقهاء المسلمين على المقاومة وعلى الحيلولة دون انتصار النصارى، وكان ذلك عن طريقين: أولهما: تكبير المجتمع المسلم بأحاديث نسبت للرسول (ﷺ)، تبين فضل الأندلس والجهاد فيه. ثانيهما: دعوة الملوك والأمراء الأندلسيين للدفاع عن المسلمين، عدا عن مشاركتهم في الحروب بأنفسهم.

ومن الأحاديث التي قيلت في فضل الأندلس والجهاد فيه، أن الرسول (ﷺ) قال: "تفتح بعدي جزيرة يقال لها الأندلس، إليها ينتمي الإسلام، وهم مرابطون في منازلهم، شهداء على فراشهم، يُنظر يوم القيامة إلى شهدائهم كما ينظر أهل الأرض نجوم السماء، رباط يوم وليلة في ثغورها أعظم عند الله من رباط سنة في غيرها" (الشطبي، 1416: 206؛ الزهري، د.ت: 80-81)، وفي حديث آخر قال (ﷺ): "يفتح بعدي جزيرة يُقال لها الأندلس، حيهم سعيد، وميتهم شهيد، يخرجون من قبورهم على سحاب من نور، تسير بهم في الهواء حتى تنزلهم في الجنة، ويمرون على الصراط كالبرق الخاطف" (الشطبي، 1416: 206)، ويقال إن الرسول (ﷺ) نام مرة فانتبه ضاحكاً، فسئل عن ضحكه (ﷺ) فقال: أخبرني جبريل عليه السلام أن بأقصى الأرض جزيرة يُقال لها الأندلس، يكون فيها رجال يأمرون بالمنكر، وينهون عن المعروف، فولدني نفسي بيده كأني أنظر إلى نسائهم كاشفات الرؤوس، لا يدرون أين يهربون ولا يجدون مهرباً (الشطبي، 1416: 206)، "وتوجه (ﷺ) مرة أخرى تلقاء المغرب، وأشار بيده يُسلم فقبل له: على من تسلم يا رسول الله، فقال: على رجال من أهل بيتي أو من أمتي يكونون بجزيرة يُقال لها الأندلس، حيها مرابط وميتها شهيد، هم من الذين استثناهم الله في قوله ﴿وَنفخ في الصور فصعق من في السموات ومن في الأرض إلا من شاء الله﴾ فهم آمنون من الصعق عند النفخ في الصور" (الشطبي، 1416: 206؛ ابن عذاري، 1980: 6/1-7).

وقال رسول الله (ﷺ): "تفتح بعدي جزيرة يُقال لها الأندلس، الصغير منهم والكبير شهداء عند الله، تمطر أرواحهم على بيت المقدس كما تمطر السماء بالماء، فقبل بما أعطوا هذه الفضيلة يا رسول الله، قال: لا تبعاهم سنتي وهم لا يروني، فكيف لو رأوني، وفي آخر الزمان يغشاهم عدوهم فيقتلهم على فراشهم وتسبى ذرايعهم وتخرب مساجدهم، وإنهم ليأخذون بقول أهل المدينة، يُخبرون في الحياة والممات، وإنني سألت الله عز وجل أن يأتيهم بدعة حتى يلقوه بوالهيم عدو الدين، حتى ينقطع الجهاد من المغرب والمشرق إلا الأندلس، غزوة واحدة فيها أفضل عند الله من ألف غزوة في غيرها" (الشطبي، 1416: 106-107).

ومما يُذكر عن فضيلة جزيرة الأندلس عن أنس بن مالك أنه قال: "قال رسول الله (ﷺ) جزيرة بالمغرب منقطعة يُقال لها الأندلس يسكنها أقوام غرباً في آخر الزمان، رباط يوم وليلة فيها يعدل عند الله عبادة خمسين سنة، النائم مع عياله على فراشه كالضارب منكم بالسيف بين يدي، وكالصائم القائم في غيرها، طوبى لمن أدركها، أثر قدم فيها كأثر شهيد مستخبط في دمه، وشهداؤها أفضل الشهداء، هي الجزيرة الخضراء الزهراء وإن الريح لتحمل أرواحهم لبيت المقدس إلى يوم القيامة، فيبعثها مع النبيين" (الشطبي، 1416: 106).

ويقال إن الرسول (ﷺ) قد أخبر أصحابه بافتتاح الأندلس ووصفها لهم وقال: "الأندلس باب من أبواب الجنة، وهي جزيرة الحرب، لها أربعة أبواب: باب يُسمى طرطوس وباب يُسمى وادي الحجار، وباب يُسمى المريّة، وباب يُسمى قورية، وهي كلها موضع رباط فليل: يا رسول الله بماذا نالت هذه الفضيلة، قال: بحب أهل العلم والجهاد، يزفون العالم زفاً قلوبهم متعلقة بالجهاد، ولتقوم الساعة ورجال منهم يجاهدون في سبيل الله لا يدرون متى تقوم الساعة حتى يرون الجبال قد سيرت ومناديهم ينادي للصلاة، فلا يزالون في صلاتهم، ألا وإن رباط يوم وليلة في الأندلس خير من اثنتي عشرة حجة بعد الفريضة" (الشطبي، 1416: 205-206).

وعن سعد بن أبي وقاص أن رسول الله (ﷺ) قال: لا يزال أهل الغرب ظاهرين على الحق حتى تقوم الساعة (الحميدي، 1983: 35/1؛ الضبي، 1997: 17؛ ابن عذاري، 1980: 6/1).

هذه الأحاديث التي نسبت للرسول (ﷺ) تحمل معان متعددة منها:

1. التأكيد على أهمية الجهاد في الأندلس وتقديمه على سائر العبادات، وهذا التأكيد يمثل دعوة الناس لمقاومة النصارى، الذين كثفوا من هجماتهم على المدن الأندلسية، لذلك أفتى ابن رشد بتفضيل الجهاد على الحج، حينما سُئل عن من لم يحج من أهل الأندلس في وقت اشتداد هجمات النصارى على الأندلس، "هل الحج أفضل من الجهاد، وكيف لو حج الفريضة؟"، فأجاب: فرض الحج ساقط في زماننا هذا عن أهل الأندلس، لعدم الاستطاعة وهي القدرة على الوصول مع الأمن، والنفس، والمال، المقرر أن الجهاد الذي لا تحصر فضائله أفضل، وهو أبين من أن يُسأل عنه، وموضع السؤال فيمن حج الفريضة والسبيل مأمونة هل الحج أفضل، أو الجهاد لما ورد فيه من الفضل العظيم" (الونشريسي، 1981: 432/1)، فهذا التناغم بين الأحاديث والفتاوي، يؤكد العزم على حشد الطاقات لمقاومة التطلعات النصرانية في القضاء على الإسلام.

2. كما أن الأحاديث ألمحت إلى الصراع المذهبي في الأندلس، بتعصبهم وتفضيلهم مذهب مالك، ويُلاحظ أن الحديث الذي تناول هذا المعنى، جاء للرد على المذاهب التي ظهرت في الأندلس، فكان تذكرة للناس بضرورة الالتزام بمذهب مالك، وعدم التفكير بالأخرى.

3. تناولت جميع الأحاديث الجهاد، والمرابطة، وفضلها، وهذا تأكيد على أن حرب المسلمين مع النصارى هي دينية في الدرجة الأولى.

4. كان أحد الأحاديث السابقة وصفاً لملوك الطوائف، وابتعادهم عن الإسلام، وانغماسهم في الملاهي، حتى وصفهم بأنهم يأمرن بالمنكر وينهون عن المعروف ونساءهم كاشفات الرؤوس، لا يدرون أين يهربون ولا يجدون مهرباً. كذلك يحمل هذا الحديث في طياته سبب هزائم المسلمين في الأندلس، لابتعادهم عن الدين، وقد يكون هذا الحديث وضع خصيصاً لتبرير تدخل المرابطين في الأندلس، وجواز قضائهم على ملوك الطوائف الذين جلبوا الولايات لسكان الأندلس لعدم مراعاتهم شرائع الله وتطبيقها.

5. من المعاني المختلفة التي وردت في الأحاديث، يظهر أنها لم توضع دفعة واحدة، بل في فترات زمنية متعددة لتعالج بعض المشكلات الاجتماعية، والسياسية الطارئة.

وجاءت الفتاوي الفقهية لتؤكد المعاني كافة التي وردت في الأحاديث السابقة، فأفتى الفقهاء بأن يكون الجهاد والغزو كفارة لحد القتل، إذا امتنع أهل القتل عن القصاص، أو أخذ الدية من القاتل (النباهي، 1980: 62)، وهذا ما يؤكد مذهب مالك السائد تطبيقه في الأندلس. ولام بعض الفقهاء أمراء الطوائف لنقااسهم عن نصرة الدين، فقد أرسل أبو حفص عمر بن الحسن الهوزني خطاباً إلى المعتضد بن عباد، يحضه فيه على الجهاد في سبيل الله، وذلك بعد أن غلب النصارى على مدينة برُبُشتر سنة 456هـ/1063م، إلا أن المعتضد استدرجه إلى إشبيلية وقتله بيده (ابن بشكوال، 1966: 402/2؛ القاضي عياض، 1998: 364/2؛ ابن بسام، 1997: 81-83)، ليمنع انتشار هذه الدعوى بين الفقهاء والناس، حتى لا تكون مطلباً عاماً، خاصة وأن ملوك الطوائف عاجزون عن مواجهة النصارى.

فالهوزني يُعد مثلاً لبعض الفقهاء الغيورين على الإسلام، والمسلمين، حيث أخذ على عاتقه تحريض ملوك الطوائف على مقاومة النصارى، ورغم مقتل الهوزني إلا أن الدعوة استمرت بعد ذلك، لكن باتجاه اتهام أمراء الطوائف بانصرافهم عن الدين وحدوده، وضرورة الاستعانة بالمرابطين (بالنثيا، 1955: 18)، لهذا وقف الفقهاء إلى جانب المرابطين، وتألَّبوا على أمراء الأندلس، ومضوا يتهمونهم بالمروق عن الدين (بالنثيا، 1955: 100)، وأفتوا يوسف بن تاشفين بجواز خلعهم، وبقتالهم إن امتنعوا (المقري، 1995: 143/6)، فقد أفتى الفقهاء بقتال صاحب سبته سقوت بن محمد، لمنعه ابن تاشفين من العبور إلى الأندلس، وعدوا موقفه هذا صداً عن سبيل الله (ابن الأبار، 1985: 98/2)، وساند الفقهاء جمهور كبير من الناس رأوا ضرورة عزل أمراء الطوائف لعجزهم عن مقاومة النصارى (بالنثيا، 1955: 18)، ثم اعلنوا أن هؤلاء الأمراء "فسقة، ودعار كفر"، إنهم بهذا النهج قد أفسدوا الأمة "وجعلوها لا تعباً بكل ما هو مقدس".

وأعلن الفقهاء أيضاً أن يوسف بن تاشفين أصبح في حلّ من جميع أيمانه، وعهوده، والتزاماته نحو هؤلاء الحكام، ولم يعد خلعه عن عروشهم من حقه فحسب، بل صار واجباً عليه (دوزي، 1998: 149/3)، كما ساند هذا الرأي كبار فقهاء المشرق، وفي مقدمتهم الإمام الغزالي وأبو بكر الطرطوشي نزيل مصر يومئذ (ابن الخطيب، 1973: 247؛ عنان، 1988: 338)، إذن فقد التمس أمير المسلمين لتنفيذ مشروعه، سند أحكام الشرع، وتأييد أهل الرأي قبل الإقدام عليه، وحمل العامة على التنكر لملوكلهم وتأييد المرابطين شديدي التعصب للدين، وسرعان ما ظهر التعصب الديني الشديد لدى المرابطين، حيث لم ينعم بالتسامح في ظلهم غير ما كانوا على الملة الإسلامية، فقد طبق على اليهود ما طبق على النصارى المعاهدين في تخييرهم بين الإسلام أو الجزية، وقد ارتضى الكثير منهم دفع الجزية لبيت مال المسلمين، ويشير أشباح إلى أن يوسف بن تاشفين كان شديد العداء لليهود، وكان يريد أن يرغمهم على اعتناق الإسلام (أشباح، 1958: 482)، فقد روى أحد فقهاء قرطبة أنه وجد مجلداً من تأليف ابن مسرة القرطبي، وكان يوجد في هذا المجلد حديث منسوب إلى الرسول (ﷺ) أن اليهود كانوا قد قطعوا على أنفسهم عهداً للرسول (ﷺ) بأن يُسلموا في ختام القرن الخامس الهجري إن لم يظهر "المسيح" المنتظر حتى ذلك الحين، فتقدم يوسف بن تاشفين إلى مدينة أليسانة، وهي مدينة اليهود في الأندلس، ليطالبهم بالوفاء بالوعد الذي وعد به أجدادهم من قبل، إلا أنهم بذلوا الكثير من الأموال لأمر المسلمين حتى لا يكرههم على الوفاء بوعدهم القديم (مجهول، 1979: 80؛ دوزي، 1998: 162/3-163)، كما يذكر دوزي أيضاً أن المستعربين لا قوا عنناً شديداً لما كانت تتطوي عليه صدور الفقهاء والجمهور ضدهم من الكراهية العنيفة، لذلك أفتى الفقهاء بهدم كنيسة "جديلا"، التي شيدت قرب قرطبة، ولقيت هذه الفتوى رضا يوسف بن تاشفين، ومن ثم تمت إزالتها وسويت بالأرض عام 493هـ/1099م (دوزي، 1998: 162/3-163)، وسار الموحدون على النهج نفسه الذي سار عليه المرابطون في عدم التسامح مع الديانات الأخرى، فأعلنوا أن أية ديانة غير إسلامية في بلادهم تعد خروجاً على القانون، ويذكر شايندلين أن ذلك يمثل انسجاماً مع أصوليتهم المتطرفة (ريموند شايندلين، 310/3)، إلا أن الواقع كان رداً على تكالب النصارى ضد المسلمين، كما أن أمير المؤمنين أبا يوسف يعقوب المنصور، وبعد انتصاره على ألفونسو الثامن ملك قشتالة في معركة الأرك سنة 591هـ/1194م (الحميري، 1984: 12)، سار إلى قلعة رباح (الحميري، 1984: 163)، وأمر بكنيستها وحولت مسجداً وصلى فيها المسلمون (المراكشي، د.ت: 358-359).

وكما نشطت الدعوة إلى الجهاد والمرابطة في عصر ملوك الطوائف، كانت كذلك في عهد الموحدين، فيذكر المراكشي أن أمير المؤمنين أبا يعقوب يوسف بن عبد المؤمن، لما تجهز إلى غزو الروم -النصارى- أمر العلماء أن يجمعوا أحاديث في الجهاد تملئ على الموحدين ليدرسوها، وهكذا جرت عادتهم إلى اليوم... (المراكشي، د.ت: 358-359).

أما انتصار الموحدين في موقعة الأرك سنة 591هـ/1194م، فقد كان انتصاراً للدين على الحزب الكافر، وهذا يعمق حقيقة الصراع الديني بين الإسلام والنصرانية. يقول علي بن حزمون مادحاً أمير المؤمنين، ومهنئاً بهذا الانتصار:

حَيِّكَ مُعْطَرَةَ النَّفْسِ	نفحاتُ الفتحِ بأندلس.
فَدَرَ الْكُفَّارَ وَمَاتَمَهُم	إن الإسلامَ لفي عُرسٍ.
رَفَعْتَ مَنَارَ الدِّينِ عَلَى	عُمْدِ شَمٍّ وَعَلَى أَسُسٍ.
فَأُولَئِكَ حَزْبُ الْكُفْرِ أَلَا	إنَّ الْكُفَّارَ لفي نَكْسٍ.
أَدْوَى الصُّلْبَانِ وَرَاءَكُمْ	خيلُ الملِكِ الْخَبَرِ النَّدْسِ.
وَمَضَتْ فِي الرُّومِ مَضَارِبُهَا	وكذلكَ تفعلُ في الفُرسِ (المراكشي، د.ت: 370-371).

إن ملامح التعصب السابقة عند المسلمين، لا تمثل سلوكاً، أو نهجاً دينياً في معاملة أتباع الديانات الأخرى، لأن التسامح هو المبدأ الأساسي الذي حض عليه الإسلام وسار عليه المسلمون، لكن تعصب النصارى الديني وعداءهم الشديد للإسلام والمسلمين، الذي تمثل بالكثير

من الممارسات، وعلى رأسها إعلان الحرب الصليبية المقدسة أدى إلى ردّ فعل إسلامي بمعاملتهم بنهجهم نفسه، فهو تعصب مقابل تعصب، هدم مساجد، وتحويل المساجد إلى كنائس، مقابل تحويل الكنائس إلى مساجد، لهذا فإن موجة التعصب الديني، أو الشعوبية الدينية بدأها النصراني وعمقوا وجودها بهدف تحقيق مكاسب سياسية، وعسكرية من خلالها.

المبحث الثاني: التعصب المذهبي عند المسلمين

للتعصب وجوه ومعان متعددة، ومن الخطأ حصره في وجه واحد أو معنى واحد، والتعصب إما أن يكون حاصلاً عن ضيق أفق الفرد والجماعة، أو لأن مصالحهم مرتبطة بهذا الاعتقاد، لهذا فإن تفضيل الأندلسيين لمذهب الإمام مالك بن أنس، وانحيازهم له، يُعدّ وجهاً من وجوه العصبية المذهبية، وانتشار هذا المذهب في الأندلس يرجع في أحد أسبابه إلى تحقيق النزعة الاستقلالية عن المشرق، الذي انتشر فيه المذهب الحنفي (العبادي، د.ت: 122).

أما سيادة المذهب المالكي في الأندلس فيعود إلى أسباب سياسية، حيث عبّر الفقهاء عن رغبتهم بأن يكون لهم دور سياسي في الدولة الأموية، وقد شارك عدد من فقهاء المالكية في ثورة قرطبة في عامي 189 و202هـ/805، 818م، ضد الأمير الحكم بن هشام الأموي 180-206هـ/796-822م، واستطاع القضاء على الثائرين، لكنه أدرك عدم تمكنه فيما بعد من السيطرة على أي تفجير لاحق لمشاعر السخط على سياسته دون دعم من الفقهاء، وتعلم هذا الدرس ابنه عبد الرحمن الثاني 206-238هـ/822 - 852م الذي تمكن من تأمين دعم الفقهاء له مقابل الاعتراف بهم حماة للشرعية (فيبرو، 1244/2؛ الشعراوي، 1969: 57)، بذلك انتشر المذهب المالكي في الأندلس بين الناس، حتى إنهم كانوا يزعمون عدم معرفتهم إلا بالقرآن وموطأ مالك، وإذا عثروا على شافعي، أو حنفي كانوا يطردونه، وإذا أمسكوا أحد المعتزلة، أو الشيعة كانوا أحياناً يقتلونه (المقدسي، 1996: 236).

بذلك كان أتباع المذهب المالكي يحولون دون ظهور وانتشار مذاهب أخرى في الأندلس وذلك بطرد أتباعها من بلادهم، وكانوا يتحفظون من النحل والفرق بإهلاك من يدعو إليها، وكان لاعتماد الإمام مالك على القرآن والحديث وعمل أهل المدينة، أن ابتعد عن الجدل والخلاف، الذي يفتح باب الفتن في مسائل العقيدة والأحكام، وهذا ما يحتاجه قطر الأندلس لكونه ثغراً للدولة الإسلامية، مواجهاً أعداءها، وخصوم عقيدتها، كما أن حكام الأندلس يكرهون المذاهب التي تفتح أبواب الخلاف والفتن، لهذا أصبح المذهب المالكي مذهباً قومياً، ورأياً سياسياً ارتبط مصيره بمصير البيت الأموي الأندلسي الحاكم، وقد ألحقت العصبية المالكية الأذى بالفكر، والمفكرين، وقطعت على الناس طريق الحرية، والابتكار، فلم تسمح لفيلسوف بإعلان رأيه وهو آمن، وحاصرت هذه العصبية علوم القدماء حصاراً عنيفاً، مما حدّ من معرفة أهل الأندلس للفلسفة، والرياضيات، والطب على أيام الإمارة والخلافة (مونس، 1954: 42-43).

وكان الفقهاء يتمتعون بمكانة عظيمة في الأندلس، وكان همهم الأول موجهاً إلى رعاية الدين، والمحافظة على المذهب المالكي، ومن هنا اتصفوا بتعصب شديد (مونس، 1954: 71-72)، فاضطهدوا كل مذهب فقهي يخالف مذهبهم، ومن ذلك أنهم أردوا الإيقاع ببقية بن مخلد، وتكلموا في حقه عند الأمير محمد 238-272هـ/852-886م، لأنه أراد أن يعلم الناس فقه الشافعي في الجامع، كما أن بعض الفقهاء نهوا الناس عن الذهاب والاستماع إليه (ابن الفرضي، 1989: 151/1، 170؛ الحميدي، 1983: 40)، لذلك نظر فقهاء الأندلس إلى كل تفكير عقلي في مسائل الدين على أنه زندقة، واتهموا من يتكلم في المنطق بالزندقة (بالنثيا، 1955: 324؛ دوزي، 1998: 161/3).

فابن رشد يُبدي رأيه بمعتقي المذهب الظاهري — الذي ينفي القياس في أحكام شرائع الدين، ويأخذ بظاهر النص دون التأويل فيه — بأنهم من أهل البدع، ولا يجوز الأخذ بشهادتهم (التجكاني، 1993: 1273 - 1274)، وهذا يُظهر تعصب الفقهاء وأهل الفتوى المالكية لمذهبهم، والنظر بعين القلق للمذاهب الأخرى، والتجريح في عدالتهم وشهادتهم، ودفع تعصب المالكية بأتباع المذاهب الأخرى إلى التعصب لمذاهبهم،

ففي ترجمة أحمد بن مفرج النباتي المعروف بابن الرومية، يذكر ابن الأبار أنه "كان فقيهاً ظاهرياً متعصباً لأبي محمد بن حزم..." (ابن الأبار، د.ت: 107/1).

ومن إفرازات تعصب الفقهاء للمذهب المالكي، إحراق كتاب "إحياء علوم الدين" للإمام الغزالي، وكان ذلك في بداية سنة 503هـ/1109م في عهد علي بن يوسف بن تاشفين، الذي كان يتسم بنوع من الورع والزهد، وكان للفقهاء في عهده مكانة عالية، حتى إنه كان لا يقطع أمراً إلا بمشورتهم، وكان الفقهاء يؤثرون علم الفروع -فروع مذهب مالك- وهو علم العبادات، والمعاملات، ويهملون علم الأصول - أصول الدين-، وكان لا يحظى لدى أمير المسلمين إلا من برع في علم الفروع (المراكشي، د.ت: 235 - 236)، ولما قرأت كتب الغزالي وخاصة "الإحياء" وذاع ما فيه، سخط فقهاء المالكية عليه وأنكروا كثيراً من المسائل التي وردت فيه، وزعموا أنه مخالف للدين، حتى كفروا كل من يقرأ كتاب الإحياء، ورفع الفقهاء الأمر إلى أمير المسلمين علي بن يوسف، وأجمعوا على وجوب مطاردة الكتاب وإحراقه، فأخذ الأمير علي برأيهم، وجمعت نسخ الكتاب واحتفل بإحراقها في رحبة المسجد الجامع بقرطبة، وأنذر أمير المسلمين بعقوبة الإعدام، ومصادرة المال لكل من وُجد عنده كتاب الإحياء (ابن القطان، 1990: 71-72)، وسار على هذه السياسة نفسها الأمير تاشفين بن علي بن يوسف، حيث بعث برسالة سنة 495هـ/1102م إلى أهل بلنسية، يحثهم على الالتزام في الفتيا، وإصدار الأحكام على مذهب الإمام مالك "... فلا عدول لقاض ولا مُفتٍ عن مذهبه، ولا يُأخذ في تحليل ولا تحريم إلا به، ومن حاد عن رأيه بفتواه ومال من الأئمة إلى سواه، فقد ركب رأسه واتبع هواه، ومتى عثرتم على كتاب بدعة أو صاحب بدعة، وخاصة وفقكم الله كتب أبي حامد الغزالي، فليبتبع أثرها، ويقطع بالحرق المتتابع خبرها، ويبحث عليها وتغلظ الأيمان على من يتهم بكتمانها (مؤنس، 1954: 113).

إن حملة الفقهاء على كتاب الإحياء، تعود إلى التعصب التقليدي الذي استغرق حياتهم الدينية، وجعلهم لا يتسامحون بأي نزعة ولو كانت طفيفة، وهذا ما دفعهم إلى الأمر بإحراق كتاب الإحياء، والاتهام بالهرطقة، والابتداع، والقنل لكل من يقرأ الكتاب من عامة الشعب، ويذكر عنان أن حملة الفقهاء على كتاب الإحياء لم تكن راجعة لأمر تتعلق بالعقيدة، أو لأنه يخالف الدين في شيء، بل كانت ترجع إلى ما ورد فيه من حملة لادعة على علماء الفروع، والتنويه بجهلهم وسخف مجادلاتهم السطحية (عنان، 1988: 79)، إذن تعصب الفقهاء كان من أجل الحفاظ على مكانتهم في عهد علي بن يوسف، خاصة أنه لا يقطع أمراً دونهم، لذلك فإن حملة الغزالي في كتابه على علماء الفروع، والتنويه بجهلهم يضر بمصالحهم السياسية لدى الأمير، ويقلل من شأنهم أمام الناس، لهذا أظهروا الحزم والتعصب الشديد لعلم الفروع وعدّوا الخروج عنه كفراً، للحفاظ على المكتسبات السياسية، لذلك فالتعصب هنا كان من أجل تحقيق مكاسب سياسية، باستغلال الدين لخدمة مصالح فئة معينة. وأخذ التعصب أيضاً طريقه إلى ابن العربي صاحب كتاب "أحكام القرآن"، ويُعد هذا الكتاب مرجعاً مهماً في التفسير لدى أتباع المذهب المالكي، لأن مؤلفه مالكي، وقد ظهرت فيه روح التعصب لهذا المذهب والدفاع عنه (المشيني، 1986: 285)، فجنده يرمي مخالفه ويغلظ عليهم في القول (المشيني، 1986: 486)، ومثال ذلك عند تفسيره لقول الله تعالى ﴿ذَلِكَ أَتَى أَهْلَ مَثَلٍ﴾ [النساء: 3].

يقول ابن العربي: اختلف الناس في تأويله على ثلاثة أقوال، الأول ألا يكثر عيالكم، قاله الشافعي، وألا تضلوا قاله مجاهد، وألا تميلوا قاله ابن عباس والناس، وكان قد أعجب أصحاب الشافعي بكلامه، فقالوا: وهو حجة لمنزلة الشافعي في اللغة، وشهرته في العربية، والاعتراف له بالفصاحة، قال ابن العربي: كل ما قاله الشافعي، أو قيل عنه، أو وصف به فهو كله جزء من مالك ونُغْبَة - أي جرعة - من بحرهِ، ومالك أوعى سمعاً، وأتقن فهماً، وأفصح لساناً، وأبرع بياناً، وأبدع وصفاً، ويذكر على ذلك مقابلة قول بقول في كل مسألة وفصل (ابن عربي، د.ت: 314).

وبقي التعصب للمذهب المالكي حتى كانت خلافة أبي يعقوب يوسف الموحي، الذي أحدث انقلاباً في ميدان المذاهب والعقيدة في الدولة الموحدية، فطارد علم الفروع، وأمر بإحراق كتب المذهب المالكي في سائر البلاد، وأمر الناس بترك الاشتغال بعلم الفروع والخوض فيه، وكان أشد الدعاة للمذهب الظاهري (ابن الأثير، د.ت: 245/6؛ المراكشي، د.ت: 354؛ عنان، 1988: 239).

ونتيجة للتعصب الديني، نُكِبَ الفيلسوف أبو الوليد محمد بن أحمد بن محمد بن رشد (الحفيد) في عهد الخليفة الموحي أبي يعقوب يوسف المنصور، بسبب اتهامه بالخروج عن أحكام الشريعة والمروق " وإيثاره فيها لحكم الطبيعة (ابن عذاري، 1980: 226)، وكانت الدراسات الفلسفية من الموضوعات المكروهة، وأدين الفيلسوف ابن رشد، وعُوقِبَ بالنفي إلى بلدة أليسانة، وهذه المحاكمة وهذا الاتهام الذي اتخذ صورة الاضطهاد الفكري يكشف عن روح التزمت، والتعصب العميق، الذي كان يتسم به التفكير الديني في عصر الموحدين (عنان، 1988: 225، 228).

ومجمل القول إن التعصب المذهبي استمر في الأندلس طيلة الحكم الإسلامي في عصوره المختلفة، ويرجع ذلك إلى الخصوصية الأندلسية، التي لا تحتل تعدد الفرق والمذاهب المؤدية إلى الصراع والخلاف بين أبناء الأمة الإسلامية، الذي من شأنه أن يُضعف من مقاومة المسلمين وثباتهم أمام أعدائهم الرابضين على الحدود الشمالية في إسبانيا، والمتربصين لهم في الداخل مثل المستعربين. كما أن سيطرة المذهب المالكي على شؤون الفتيا في الأندلس، واعتلاء الفقهاء المراكز الرفيعة، جعلهم يناضلون للحفاظ على هذه المكانة بعدم السماح بانتشار أي من المذاهب الأخرى لئلا تُتأزعم الأمور، الذي قد يؤدي إلى فقدانهم هذه المكانة، فدفعهم هذا إلى التعصب الشديد للمذهب المالكي بتفضيله على المذاهب الأخرى، والحكم بالزندقة على مخاليفهم، والتقليل من شأنهم وتبيان سخف تفكيرهم الديني.

المبحث الثالث: الجدل بين أصحاب الديانات السماوية

تميزت الأندلس بوجود أتباع الرسالات السماوية الثلاث على أرضها - الإسلام، والمسيحية، واليهودية - وأدى ذلك إلى جدل عنيف بين هذه الأديان، ودافع كل طرف عن معتقداته، متهماً الآخر بسخف الاعتقاد، وكان الجدل على أشده بين الإسلام والنصرانية، والإسلام واليهودية، وهذا يرجع إلى كثرة النصارى واليهود في الأندلس، فكان كل طرف من الأطراف يسعى لنصرة دينه، بالدفاع عن عقيدته تارة، والطنع بعقائد الآخرين تارة أخرى.

الإسلام واليهودية:

تميز ابن حزم الأندلسي 384-456هـ/994-1063م بتصديه لبعض المجادلين اليهود في شؤون العقائد، فكان يناظرهم دون أن يطلع على التوراة (الفصل، 1975: 213/1)، وكثرت المناظرات حتى قال ابن حيان "ولهذا الشيخ أبي محمد مع يهود -لعنهم الله- ومع غيرهم من أولي المذاهب المرفوضة من أهل الإسلام مجالس محفوظة، وأخبار مكتوبة، وله مصنفات في ذلك معروفة، من أشهرها في علل الجدل كتابه المسمى "الفصل بين أهل الأراء والنحل"، ومن تواليفه "كتاب الصّادع والرّادع" في الرد على من كَفَر أهل التأويل من فرق المسلمين والرد على من قال بالنقل... (ابن بسام، 1997: 170)، ثم إن ابن حزم رأى أن الاطلاع على نصوص التوراة، وكتب اليهود يقوي من موقفه في الرد عليهم، فقرأ التوراة بأسفارها، ويبدو أنه كان منها نسخ مترجمة ترجمات مختلفة، ولم تكن هناك ترجمة واحدة معتمدة لقوله "ورأيت في نسخة أخرى منها" (الفصل، 1975: 121/1)، كما اطلع ابن حزم على كتب وشروح لليهود لا يُسميها، ويكتفي بأن يشير إليها بقوله "وفي بعض كتبهم" أو "في بعض كتبهم المعظمة" (الفصل، 1975: 217/1-219)، وقد عرف ابن حزم الكثير من أحوال اليهود بالمجاورة والمشاهدة، فكان يسأل بعض علمائهم عن بعض المسائل، مجادلاً في أكثر الأحيان لا مستفهماً (رسائل ابن حزم، 1987: 114/1)، وجعل همه منذ البداية على إثبات التحريف، والتناقض، والتبديل في التوراة، لذلك قام بدراستها ومقارنة النسخ بعضها ببعض، حتى يُظهر الاختلاف بينهما، مما يُضعف من حجة من يُجادله.

وكان ممن جادله ابن حزم من اليهود، إسماعيل بن يوسف الكاتب المعروف بابن النغريلة، وسأله عن قول التوراة "لا تنقطع من يهودا المخرصة ولا من نسله قائد حتى يأتي المبعوث الذي هو رجاء الأمم"، فقال ابن النغريلة: لم تنزل رؤوس الجواليث ينتسلون من ولد داود وهم

من بني يهوذا وهي قيادة وملك ورياسة، فقال ابن حزم: هذا خطأ لأن رأس الجالوت لا ينفذ أمره على أحد من اليهود ولا من غيرهم... الخ" (الفصل، 1975: 152/1-153).

وفي موضع آخر تساءل ابن حزم عن قول إبراهيم إن سارة أخته، فقال ابن النغيلة: إن نص اللفظ في التوراة "أخت"، وهي لفظة في العبرانية على الأخت وعلى القريبة، فقال ابن حزم: يمنع من صرفنا هذه اللفظة إلى القريبة ها هنا، قوله: لكن ليست من أمي وإنما هي بنت أبي، فوجب أنه أراد الأخت بنت الأم، قال مختلط (أي ابن النغيلة) ولم يأت بشيء (الفصل، 1975: 135/1).

ويبدو أن يوسف بن إسماعيل بن النغيلة كتب رداً على ابن حزم، بعد اطلاعه على أجزاء من الفصل تتعلق بالتوراة، مما أثار ابن حزم فرد برسالة يفند كامل آرائه، ويبين سخط تفكيره وهي رسالة "الرد على ابن النغيلة اليهودي" (رسائل ابن حزم، 1987: 18/3، 41 وما بعدها)، وقد اعتاد يوسف بن النغيلة على المجاهرة بالكلام في الطعن على ملة الإسلام (الشنتريني، 1997: 766؛ رسائل ابن حزم، 1987: 18/3-19)، ويذكر ابن سعيد أنه أقسم أن ينظم جميع القرآن في أشعار وموشحات يغنى بها (المغرب، 90/2-91)، لذلك قام يوسف بتأليف كتاب "في تناقض معاني القرآن" (رسائل ابن حزم، 1987: 42/3)، محاولة منه التشكيك بالقرآن الكريم ومعانيه، وصرح باستحالة مطابقة الإسلام للعقل (دوزي، 1998: 75/3)، ويعزو ابن حزم قيام هذا اليهودي بالطعن على الإسلام إلى عداوة اليهود للإسلام وأهله، وبغضهم للرسول (ﷺ)، فإن بعض من تقلى قلبه للعداوة للإسلام وأهله وذوّبت كبده ببغضه الرسول (ﷺ) من متدثرة الزنادقة المستسرين بأذل الملل وأرذل النحل من اليهود التي استمرت لعنة الله على المرتسمين بها، ... أطلق الأشر لسانه، وأرخى البطر عنانه ... فألف كتاباً قصد فيه - بزعمه - إلى إبانة تناقض كلام الله عز وجل في القرآن اغتراراً بالله تعالى أولاً، ثم بملك ضعفة ثانياً (هكذا وردت في الأصل، والصحيح "بملك ضعفه)، واستخفافاً بأهل الدين بدءاً، ثم بأهل الديانة في مجانة... (رسائل ابن حزم، 1987: 42/3).

وتناول رد ابن حزم في رسالته "الرد على ابن النغيلة اليهودي" المشكلات التي أثارها ابن النغيلة، والرد على كل مشكلة منها، ونقع في ثمانية فصول، وهو لا يكتفي بالرد، بل يشفعه بانتقاد إحدى المسائل التي وردت في التوراة، لافتاً ابن النغيلة إلى أن بيته من زجاج (رسائل ابن حزم، 1987: 19/3)، واعتذر ابن حزم في ختام رسالته عن إيراد شنع اليهود، لأن الله تعالى قصّ علينا من كفرهم، فاقتدى هو بكتاب الله في ذلك (رسائل ابن حزم، 1987: 70/3).

كما رد ابن حزم على ادعاء اليهود بأن العبرية لغة الملائكة، فقال: "وقد أدى هذا الوسواس العامي اليهود إلى أن استجازوا الكذب والحلف على الباطل بغير العبرانية، وادعوا أن الملائكة الذين يرفعون الأعمال لا يفهمون إلا العبرانية، فلا يكتبون عليهم غيرها، وفي هذا من السخف ما ترى، وعالم الخفيات، وما في الضمائر عالم بكل لسان ومعانيه عز وجل لا إله إلا هو" (الإحكام في أصول الأحكام، 1978: 40/1)، وعلى إثر الجدل الدائر بين اليهودية والإسلام، ألف ابن حزم كتاب "الفصل في الملل والأهواء والنحل"، عرض فيه لمختلف الفرق الإسلامية وللديانيتين اليهودية، والنصرانية، بأقصى النقد وأدع طاعناً عليها، ومنندداً بأصحابها جميعاً.

ويبدو أن كراهية اليهود للإسلام كانت بينهم عامة وشديدة، ودفعت هذه الكراهية أحد اليهود بسبب الشريعة الإسلامية، فقد كان في يوم الاثنين الثالث عشر من ذي الحجة من سنة 462هـ/1070م أن حدث بإشبيلية هيجان كبير لأن يهودياً سبب الشريعة، فأثار ذلك غضب أحد المسلمين فبطش به في وسط السوق، وجرحه، وأثار العامة ضده، فتدخل صاحب المدينة، وقبض على المسلم واعتقله "فكان لعامة الناس في إنكار حبسه كلام وإكثار خشي وباله" (ابن بسام، 1997: 418).

كما إن الأمير عبد الله بن بلقين يرد على أهل الكتاب عامة واليهود خاصة في مذكراته فيقول "... وأما ما يزعم أهل الكتاب من أنهم على الحق، ولهم الدين القويم، وأن قولهم أحل بغيره، فالرد عليهم في ذلك أن يُقال لهم: إن كنتم تزعمون أنه ليس بعد نبيكم نبي ولا سنة، فلا يكون هذا القياس إلا بأن تكفروا بمن كان قبل نبيكم من الأنبياء! ألم تكن قبل موسى شرائع وكتب منزلة وأنبياء عدة! فلو كان على مذهبكم، لا ينسخ دين ديناً، لم يجب لكم أنتم شيء" (التبيان، 1955: 4-5).

هذه الروايات تدل على عمق الجدل الديني القائم بين المسلمين واليهود، وعلى عنصرية اليهود، وكرهيتهم للدين الإسلامي، ولم يدخروا وسعاً في التشكيك بالرسول (ﷺ) ورسالته، مع إظهار صحة اعتقادهم، وسذاجة اعتقاد الآخرين، إلا أن فقهاء، وعلماء المسلمين، والغيورين على الدين الإسلامي، ردوا عليهم وأظهروا سذاجة تفكيرهم مستخدمين الأدلة العقلية الدامغة، ومبينين التناقض التام في كتبهم المقدسة، وكان محمد بن حزم خير من جادلهم وردّ على مزاعمهم وتشكيكهم بشريعة الإسلام، من خلال كتابه الفصل والكثير من الرسائل الأخرى.

الإسلام والنصرانية:

أما الجدل مع النصرانية فاتخذ وجوهاً جديدة، كحرص الطرفين على الدعوة والتبشير للدين، لهذا احتدم الجدل حول مسائل كثيرة في الديانتين مثل الزواج عند المسلمين، والتثليث عند النصارى، وحول ألوهية المسيح عليه السلام، وغير ذلك من المسائل، كما يُلاحظ أن الجدل الديني بين الإسلام والنصرانية كان له أبعاده السياسية والقومية، فاستغل كلا الطرفين العاطفة الدينية لإثارة الناس، وللوقوف إلى جانبهم بهدف تحقيق كسب سياسي، فكان استغلال النصارى للدين من أجل طرد المسلمين من الأندلس، وحوّلوا الحروب إلى حروب صليبية أي تحت المظلة الدينية.

أما الصراع الفكري الديني فكان بين العلماء، والفقهاء المسلمين، ورجال الدين المسيحي من قساوسة ورهبان، وخير مثال على أوجه الجدل بين الطرفين والمسائل التي تم تناولها، رسالة الراهب الفرنسي إلى المقتدر بن هود أمير سرقسطة، يدعو فيها إلى اعتناق النصرانية، وقد ردّ الفقيه أبو الوليد الباجي على هذه الرسالة بتكليف من المقتدر بن هود (Madrid, 1952: 287-310).

أما سبب تجرؤ الراهب الفرنسي على كتابة هذه الرسالة، فيعود إلى سياسة التسامح الديني، التي اتبعتها بنو هود مع رعاياهم المسيحيين (عنان، 1988: 282)، حيث عاشوا في ظلمهم في ظروف حسنة، وتمتعوا بسائر الحريات الفكرية والدينية، ويبدو أن الراهب لم يفهم أن هذا التسامح هو أصل من أصول الدين الإسلامي، بل اعتقد بوجود رغبة للمقتدر أو ميول إلى المسيحية. فهو يبدأ رسالته بالتودد إلى المقتدر بقوله "إلى الصديق الحبيب الذي نؤمله أن يكون خليلاً مدانياً للمقتدر على دولة هذه الدنيا، الملك الشريف من الراهب أحقر الرهبان الراغب في الإنابة والإيمان بالمسيح إيشوع بن الله سيدنا..." (Madrid, 1952: 287-310)، ثم يذكر الراهب السبب الذي دفعه للكتابة إلى المقتدر، وهو سياسته المتسامحة مع المسيحيين في سرقسطة، لذلك اعتقد بميوله المسيحية "... وحقاً إن القادر على الكل الذي اصطفى أوليائه قبل خلق العالم ولم يسبق في علمه هلاكهم قد أنار قلبك وأشعره للإيمان بالله..." (UNLOP, 1952: 288)، ويبين أنه أرسل براهبين إليه ليشرحوا له حقيقة دين النصارى والمسيح الذي يجب عدم الإيمان إلا به وبدينه (UNLOP, 1952: 288)، ثم يُنكر نبوة سيدنا محمد (ﷺ)، لأن دعوته ورسالته ما هي إلا مجرد غواية شيطانية -حسب رأيه- "... فلم يستطع -أي إبليس- أن يُغري أهل الدنيا ويحملهم على ضلالهم القديم من عبادة الأوثان فشبهه على بني إسماعيل في أمر الرسول الذي اعترفوا له بالنبوة فساق بذلك أنفساً كثيرة إلى عذاب الجحيم..." (UNLOP, 1952: 288)، كما يظهر في هذه الرسالة اعتقاد المسيحيين بألوهية عيسى عليه السلام، وغير ذلك من الأمور.

وقد ردّ أبو الوليد الباجي على رسالة الراهب، مفنداً ما جاء فيها من أفكار مغلوطة واعتقادات خاطئة، وأهم ما جاء فيها ما يلي:

1. براءة الباجي والمسلمين من اعتقاد الراهب والمسيحيين بأن المسيح ابن الله، بل يؤكد أنه بشر مخلوق، خلقه الله سبحانه وتعالى، من غير أب كما خلق آدم من تراب، وحملت بعبسى أم، ولم تحمل بآدم أنثى ولا ذكراً، فإذا لم يكن آدم إلهاً وهو الأب الأول، بل هو مخلوق، فعيسى أولى أن لا يكون إلهاً، وهو من ذرية آدم وولده، بل هو عبد مربوب (DUNLOP, 1952: 292)، ثم يناقش الباجي بإسهاب قضية الخلق، ويورد أمثلة أخرى تؤكد بطلان اعتقاد النصارى بألوهية المسيح.
2. التأكيد على نبوة سيدنا محمد (ﷺ)، ودعوة الراهب لاعتناق الدين الإسلامي للفوز بالنجاة من عذاب جهنم.
3. التنويه بوقوع التحريف على الكتاب المقدس للنصارى، وعدم إمكانية حدوث ذلك للقرآن الكريم.

4. يُبين الباجي أن المسلمين على علم بشريعة النصارى والاختلاف بين الأحبار بقوله "وعندنا من علم شريعتكم واختلاف أحباركم في ملتكم، وما تورده كل طائفة من شبهكم في الأقانيم والإيجاد ومعنى اللاهوت، والناسوت، والجـوهر، وغير ذلك من تنهيات أعالجكم، ما لو أبدينا إليهما اليسير منه لحيرهما وبهرهما..." (DUNLOP, 1952: 295).
 5. ثم يبين الباجي جهل الراهب، وقلة علمه بدينه، لمخالفته أهل ملته بقوله "إن المسيح لا ينبغي الإيمان بأحد سواه".
 6. يشرح الباجي للراهب بداية الرسالات إلى الأرض، وأن أول الرسل آدم عليه السلام، ودعوته كانت عبادة الله وحده لا شريك له، وكلما نسي الناس شريعة وتقادم عهدها بعث الله رسولا إلى أهل الأرض، يجددها ويؤكددها.
 7. ثم يبيد الباجي استغرابه من قول النصارى أن المسيح بذل دمه في خلاص العباد، فيقول "وكيف يكون للرب دم، والدم من الأجساد المحدثّة المخلوقة... وكيف يكون إلهاً من يجوز عليه الموت وعمدت حياته، وكيف لم يُذهب عن نفسه الموت ولم يقدر على دفعه..." (DUNLOP, 1952: 299).
 8. سخريّة الباجي من قول النصارى أن عيسى ابن الله -تعالى عن ذلك- وأنه من ولد داود عليه السلام، يتساءل إذا كان عيسى من ولد داود -وداود عبد مخلوق وجِدَ بعد أن لم يكن، ومات بعد أن حيي، فكيف يكون عيسى الابن خالق داود أبيه وإلاهه، وكيف يكون ابناً لداود المخلوق وابناً لله الخالق (DUNLOP, 1952: 301).
 9. إظهار الباجي عجبه من قول الراهب -علا مكانته في قومه- من أن إبليس يقدر أن يضل من شاء الله أن يهديه إلى الدين.
 10. ثم يتحدث الباجي عن رسالة سيدنا محمد (ﷺ)، وبعثته، ومعجزة القرآن، وعجز الإنس والجن على الإتيان بسورة من مثله، وذكر بعض من معجزات الرسول (ﷺ) مثل تسبيح الحصى بين يديه، ونبع الماء من بين أصابعه، وإطعام العدد الكثير من الطعام القليل، وري الجيش العظيم من الماء القليل، ثم يوضح معنى الإيمان وماهيته عند المسلمين (DUNLOP, 1952: 303-307).
 11. كما يظهر من رد الباجي أن الراهب قد أرسل عدة رسائل للمقتدر، يقول "ولما تكررت علينا رسائلك ووسائلك تعينت علينا مفاوضاتك فيما رضىناه من مسئلتك ومعارضتك فيما اخترناه من منهجك..." (DUNLOP, 1952: 291).
- تمثل هذه الرسائل صورة من الجدل الفكري الديني بين الإسلام والنصرانية، التي أظهرت سخر الباجي اعتقاد النصارى بالمسيح عليه السلام، وحقدتهم على الإسلام بإنكار نبوة محمد (ﷺ)، بقولهم بأن نبوته ليست إلا غواية من إبليس، والقول بأن المسيحية هي الدين الحق والصحيح، ولا يجوز الاعتقاد بغيرها، لذلك فإن بعض علماء المسلمين ألفوا الكتب المختلفة ليردوا على ادعاءات اليهود والنصارى، فقد تناول القرافي في كتابه الرد على أسئلة النصارى واليهود ومعارضة أسئلتهم بمائة سؤال، ثم إثبات نبوة سيدنا محمد (ﷺ) من خلال كتبهم (القرافي، 1987: 53).
- كما قام عبد الله الترجمان الأندلسي (بالنثيا، 1955: 586-587) بتأليف كتابه للرد على النصارى، وتناول فيه موضوعات مختلفة منها تبيان فرق النصارى، وتعدد مذاهبهم، واعتقاد فرقههم (الأندلسي، 1983: 67-71)، ثم بيان فساد قواعد دين النصارى من التغطيس، والإيمان بالتثليث، وغير ذلك (الأندلسي، 1983: 73 وما بعدها)، ثم بيان أن عيسى ليس بإله، إنما هو بشر مخلوق ونبي مرسل (الأندلسي، 1983: 109-111)، ثم فيما يعيبه النصارى على المسلمين من زواج الصالحين، والاختتان، وغير ذلك (الأندلسي، 1983: 127-133)، ثم ينهي كتابه في ثبوت نبوة سيدنا محمد (ﷺ) بنص التوراة، والإنجيل، والزبور (الأندلسي، 1983: 134 وما بعدها)، يظهر من كتاب القرافي "الأجوبة الفاخرة" وكتاب عبد الله الترجمان "تحفة الأريب" أن موضوعاتهما متشابهة للغاية، مما يعني أن هناك إجماعاً نصرانياً على المسائل الواردة في هذه الكتب، وأنه رغم الردود العديدة من فقهاء المسلمين على تساؤلاتهم، إلا أنهم يكررون التساؤلات نفسها، مما يعني تمسكهم بعقيدتهم وحقدتهم على الإسلام، رغم وضوحه ومطابقته للعقل والمنطق السليم، ويؤكد ذلك قول عبد الله الترجمان من أن "جميع النصارى مستمسكون بها إلى يوم القيامة، ولا يتركها إلا قليل منهم..." (الأندلسي، 1983: 95).

كما يبدو أن المسلمين اعتادوا على دحض اعتقادات النصارى عند تبادلها الرسائل، فقد نوّه الخليفة المرتضى لأمر الله الموحي في رسالته إلى البابا إنوسانت الرابع بدحض نظرية التثليث (القرافي، 306؛ الأندلسي، 1983: 76-81)، وتأكيد وحدانية الله سبحانه وتعالى (عنان، 1988: 739)، وقد طلب الخليفة المرتضى من البابا في هذه الرسالة أن يكون اختيار الحبر المكلف بالنظر في شؤون النصارى بالمغرب من ذوي العقل الراجح والأخلاق الحميدة، وليس ممن يتمتعون بضيق الأفق، والتعصب الأعمى "من أجل تمشية الأغراض والمذاهب" (عنان، 1988: 740-741)، وهذا الطلب يدل على أن بعض القساوسة المؤمنين في المغرب، كانوا يثيرون الخلافات الدينية مع المسلمين من منطلق تعصبهم الأعمى، وضيق أفقهم، لذلك فإن الخليفة ومن منطلق حرصه على عدم حدوث أي اختلاف أو تصادم بين المسلمين والنصارى، فإنه يشترط فيمن سيعينه البابا لرعاية شؤون النصارى أن يكون من ذوي العقل الراجح "وممن يتميز في الخدمة بالمذهب المستجاد والقصد المستحسن..." (عنان، 1988: 740).

المبحث الرابع: الصراع السياسي والعسكري

اتسم الصراع بين المسلمين والنصارى في الأندلس بالصيغة الدينية، سواء على المستوى الشعبي، أو على المستوى الرسمي، فكان وضع الأحاديث النبوية التي تبين فضل الجهاد في الأندلس دون سائر البلاد، وحثّ الفقهاء والملوك على نصرته الدين والتصدي للنصارى، وبلغت هذه الدعوات ذروتها بعد سقوط طليطلة سنة 478هـ/1085م بيد النصارى، فيقول أحد الشعراء:

خذوا ثأر الديانة وانصروها فقد حامت على القتلى النصور (المقري، 1995: 239/6-242)

فالشاعر يدعو إلى نصرته الدين الإسلامي من هجمات النصارى، بحماية المسلمين لأنهم يمثلون الدين الإسلامي، واستمرارهم في الأندلس يعني بقاء الدين.

كما أن الشاعر يعزو سقوط طليطلة وهزيمة المسلمين إلى الابتعاد عن الدين، والانغماس في الملذات، وكثرة الفسق يقول:

فإن قلنا العقوبة أدركتهم	وجاءهم من الله النكير.
فإنما مثلهم وأشد منهم	نجور وكيف يسلم من يجور.
أنأمن أن يحل بنا انتقام	وفينا الفسق أجمع والفجور.
وأكل للحرام ولا اضطرار	إليه فيسهل الأمر العسير.

هذه الأبيات بشكل خاص، والعقيدة عامة تُظهر أن الصراع في الأندلس كان صراعاً بين الإسلام والمسيحية، وأن الدافع الديني له دوره في استتصار ملوك الطوائف بالمراطين بعد سقوط طليطلة، فبعد التهديد الذي أرسله ألفونسو السادس إلى المعتمد بن عباد، وإلى المتوكل صاحب بطليوس يطلب تسليمه بعض القلاع، والحصون، وتأدية الجزية له، رد عليه المتوكل برسالة قوية حازمة، يقول فيها "وصل إلينا من عظيم الروم كتاب مدع في المقادير وأحكام العزيز القدير... ولو علم أن الله جنوداً أعز بهم الإسلام، وأظهر بهم دين نبينا محمد عليه السلام أعزة على الكافرين، يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون... أما تعبيرك للمسلمين فيما وهى من أحوالهم فبالذنوب المركوبة..." (مجهول، 1979: 36)، فالمتوكل رغم ما يعانيه من ضعف عسكري، إلا أنه يهدد ألفونسو السادس بإعلان الجهاد في سبيل الله الذي سيؤدي إلى تسارع المسلمين في تلبية الدعوة، كما أن الرسالة تؤكد من جديد على طبيعة الصراع الديني بين الطرفين، وأن حالة التفكك التي يعيشها المسلمون ترجع إلى ابتعادهم عن الإسلام، وارتكابهم للمعاصي، وهذا ما يؤكد ابن الخطيب في حديثه عن دويلات الطوائف، التي لم تسترشد سواء في علاقاتها ببعضها البعض، أو في علاقاتها بشعوبها بسياسة إسلامية تقوم على رفع شأن الإسلام، وتوسيع نفوذه، ومحاربة المسيحيين في الشمال (ابن الخطيب، 1956: 144).

وقد ندب المتوكل قاضيه الفقيه أبا الوليد الباجي، ليطوف بحواضر الأندلس ويتصل بالرؤساء، ويدعوهم إلى لمّ الشعث وتوحيد الكلمة ومداغمة العدو (ابن الأبار، 1985: 98/2)، أما المعتمد بن عباد فقد عزم على الاستتصار بالمرابطين في عدوة المغرب بعد اجتماع موسع في قرطبة حضره الرؤساء، والفقهاء، وكان يعارض المعتمد ولده الرشيد في هذا الرأي وقال "يا أبت أَدْخُلْ علينا في أندلسنا من يسلبنا ملكنا ويبدد شملنا"، فكان جواب المعتمد لولده "أي بني، والله لا يسمع عني أبداً أني أعدت الأندلس دار كفر ولا تركتها للنصارى، فتقوم اللعنة عليّ في الإسلام، مثل ما قامت على غيري، حرز الجمال عندي والله خير من حرز الخنازير" (مجهول، 1979: 44-45؛ ابن الخطيب، 1956: 245؛ عنان، 77-78؛ بالنثيا، 1955: 100).

فموقف المعتمد هذا يدل على قوميته وانتمائه للأندلس، ويدل على الوازع الديني في نفسه، فهو يفضل أن يستولي المرابطون على الأندلس، على أن يعيدها دار كفر ويتركها للنصارى، لهذا فإن قرار المعتمد لم يكن سهلاً بالنسبة له، لما فيه تهديد من انتهاء سلطانه، إلا أن نصرة الدين والحفاظ على المسلمين في نظره أسمى من الملك، فكان يقول للوامة على هذا القرار: "يا قوم أنا من أمري على حالين: حالة يقين وحالة شك... وأما حالة اليقين فهي أني إن استندت إلى ابن تاشفين فأنا أرضي الله، وإن استندت إلى ابن فردلند أسخطت الله" (الحميري، 1984: 288/2؛ الناصري، 1997: 39/2).

لهذا أرسل المعتمد رسالة إلى يوسف يطلب منه العون والمساعدة، ويبين أن من أهداف ألفونسو السادس 1065 - 1109م ملك قشتالة في هجمته على المدن الإسلامية هو: محو الإسلام في الأندلس (راجع نص الكتاب في الحلل الموشية، ص 45-46)، كما أرسل الوزير أبو بكر ابن الجد كتاباً إلى ابن تاشفين يحمل المعنى نفسه الذي احتواه كتاب المعتمد، وقد جاء فيه "إن المساجد المتروكة غصت بالقساوسة من أعداء الدين ونشرت الصليبان فوق المنائر، التي كان يُتلى فيها الأذان من قبل، أخذت النواقيس تُقرع للقداس بعد أن كان يُدعى للصلاة، ويختتم الوزير كتابه باعتقاده أن الله قد اصطفى يوسف ابن تاشفين لإنقاذ الإسلام (الحلل الموشية، 1979: 46-48)، وكرر طلب المساعدة فأسرع ابن تاشفين بالموافقة وقال له: أنا أول منتدب لنصرة هذا الدين، ولا يتولى هذا الأمر أحدٌ إلا أنا بنفسي" (المراكشي، د.ت: 191)، فهذه الموافقة السريعة لم تكن إلا من أجل الدافع الديني، ويبدو من جواب ابن تاشفين أن المعتمد قد داعب مشاعره الدينية، مبيناً أن الحرب مع النصارى هي حرب دينية، وجهاد في سبيل الله، من أجل إبقاء راية الإسلام خفاقة في الأندلس.

ومما يؤكد الصبغة الدينية لهذا الصراع إفتاء الفقهاء بقتال صاحب سبتة سقوت بن محمد (ابن أبي زرع، 1972: 142-143) لمنعه يوسف بن تاشفين من الجواز بجيشه إلى الأندلس عبر سبتة، وعدّوا موقفه هذا صداً عن سبيل الله (ابن الأبار، 1985: 98/2).

وعندما عبر يوسف بن تاشفين بجيشه من سبتة، وقف في مقدم سفينته وبسط ذراعيه نحو السماء ودعا ربه قائلاً "اللهم إن كنت تعلم أن في جوازي هذا خيراً وصلاً للمسلمين فسهّل عليّ جواز البحر، وإن كان غير ذلك فصعبه حتى لا أجوزه، ويُقال بأن البحر ما لبث أن هدأ وجازت السفن سراعاً في ألطف جو إلى شاطئ الأندلس (الناصرى، 34/2)، ثم أرسل ابن تاشفين إلى سائر ملوك الطوائف، يدعوهم للحاق به والمشاركة في الجهاد (الحلل الموشية، 1979: 52؛ الروض المعطار، 1984: 287)، وعملاً بأحكام السنة النبوية الشريفة كتب ابن تاشفين قبل موقعة الزلاقة (صفة جزيرة الأندلس، 1988: 83) إلى ملك قشتالة، يعرض عليه الدخول في الإسلام أو الجزية أو الحرب (الحلل الموشية، 1979: 53؛ ابن الأثير، د.ت: 142/8)، وأثناء اشتداد القتال في الزلاقة أخذ يوسف بن تاشفين يُذكي حماسة جنده للقتال، ويقول "يا معشر المسلمين اصبروا لجهاد أعدائكم أعداء الله الكافرون، فمن رُزق منكم الشهادة فله الجنة، ومن سلم فقد فاز بالأجر العظيم والغنيمة" (ابن أبي زرع، 1972: 148)، وقد قاتل المرابطون في هذا اليوم وهم في أشد الشوق إلى الاستشهاد، كذلك قاتل النصارى في هذا اليوم العصيب بإخلاص يضطرم للدين والوطن (أشباخ، 1958: 85)، إلا أن الدائرة كانت على النصارى، وغطي السهل -سهل الزلاقة- بالجثث والدماء وركنت فلول ضئيلة من الجيش النصراني إلى الفرار، وهلكت البقية في موت مجيد من أجل الوطن والدين (أشباخ، 1958: 86)، وكان نصراً عظيماً للإسلام على النصرانية في شبه الجزيرة مرة أخرى (أشباخ، 1958: 86).

مما سبق، يظهر جلياً الأثر الديني في الصراع بين المسلمين والنصارى، حتى إن أشباح لم يُنكر أنه انتصار للإسلام على النصرانية، لهذا وبالرغم من أن الدافع الأساسي للصراع كان من المنطلق القومي، إلا أن النزعة الدينية والرغبة في انتصار الدين هو المهيمن على شعور كلا الطرفين، فكانت الدعوات كافة الموجهة إلى ابن تاشفين من أجل نصرة الدين، ودعوته هو لملوك الطوائف كانت للجهاد في سبيل الله، ثم اتباعه للسنة قبل المعركة، بالدعوة إلى الإسلام، أو الجزية، أو الحرب، كذلك فإن النصارى قاتلوا من أجل الدين، ومن أجل الوطن، كل هذا يدعم أن حقيقة الصراع في الأندلس كان بين الإسلام والنصرانية كديانات، وأن كل طرف كان يهدف إلى استئصال التوجه الفكري العقائدي للآخر، لأن الأندلس لا تتسع إلا لتوجه ديني وعقائدي واحد، إما الإسلام، أو النصرانية، ويبدو أن النصارى قد حسموا موقفهم بضرورة بقاء المسيحية فقط في الأندلس، ولهذا ازدادت الهجمات العسكرية التي تسعى إلى طرد المسلمين منها.

كما أن دولة المرابطين أعلنت مبدأ الجهاد في سبيل الله، وعاشت من أجله فترة حكمها، وسخرت مواردها لذلك، فمنذ بداية قيامها فرض ابن ياسين الجهاد على أنصاره من المرابطين ودعاهم على الالتزام به (ابن أبي زرع، 1972: 125-126)، وسار أمراء المرابطين بعد ذلك على هذا النهج، وإن استجابة يوسف بن تاشفين لملوك الطوائف بالنصرة خير دليل على ذلك، وشارك في الجهاد مختلف طوائف الشعب وعلى رأسهم الفقهاء، والقضاة، وعلماء الدين، ونالوا شرف الشهادة في سبيل الله (الشنتريني، 1997: 382-383، المقرئ، 1995: 807/2).

وسار الموحدون بعد ذلك في حربهم ضد النصارى على النهج الديني نفسه الذي سار عليه المرابطون، وبلغ من شدة التعصب الديني الموحي، أن عبد المؤمن بن علي "... كان كثير السفك لدماء المسلمين على الذنب الصغير، وكان يُعظمُ أمر الدين ويقويه، ويلزم الناس في سائر بلاده بالصلاة، ومن رآه وقت الصلاة غير مصل قتل" (ابن الأثير، د.ت: 1978: 82/9).

كما كان عبد المؤمن مترمناً، صارماً في سياسته نحو النصارى واليهود، حيث أصدر قراراً بوجوب خروج النصارى واليهود من أراضي الدولة الموحدية، وحدد لهم فيه أجلاً لمغادرة البلاد، إلا من أسلم منهم، فهؤلاء يصبحون رعايا، لهم ما للمسلمين الخلف، وعليهم ما عليهم، ومن بقي من النصارى أو اليهود بعد الأجل المضروب، ولم يعتنق الإسلام، فقد حلّ دمه وماله (المراكشي، د.ت: 383؛ عنان، 1988: 404)، فهذه السياسة الموحدية هي نتيجة طبيعية، لقيامها على أسس دينية خالصة، وكان من الطبيعي وهي تحارب خصومها من المسلمين الخارجين على عقيدة التوحيد، أن تكون شديدة الوطأة على النصارى واليهود (عنان، 1988: 404).

ويؤكد الشعر الطابع الديني على المعارك بين المسلمين والنصارى، فيقول علي بن حزمون عقب موقعة الأرك سنة 591هـ/1194م أمام الخليفة الموحي يعقوب المنصور:

حيثك معطرة النفس	نفحات الفتح بأندلس.
فذر الكفار ومأتمهم	إن الإسلام لفي عرس.
ورفعت منار الدين على	عمد شمس وعلى أسس.
فأولئك حزب الكفر ألا	إن الكفار لفي نكس (المراكشي، د.ت: 370).

ويقول ابن خفاجة يصف معركة:

كأنني بلوج الروم سادرة	وقد تضعض ركن الكفر فاستقلا.
قد كرت في لامة خضراء تحسبها	بحراً يلاطم من أعطافه جبلا (ابن خفاجة، 1979: 208-209).

وعندما أراد عبد المؤمن بن علي العبور إلى الأندلس استنفر أهل المغرب عامة، وكان فيمن استنفر العرب، وهم من قبائل بني هلال بن عامر، فكتب إليهم يستنفرهم إلى الغزوة:

أَقِيمُوا إِلَى الْعِلْيَاءِ هُوجَ الرِّوَا حِلْ

وَقُودُوا إِلَى الْهَيْجَاءِ جُرْدَ الصَّوَاهِلِ

وَقُومُوا لِنَصْرِ الدِّينِ قَوْمَةً ثَائِرٍ

وَشَدُّوا عَلَى الْأَعْدَاءِ شَدَّةَ صَائِلِ (المراكشي، د.ت: 294).

وهذا الشعر وغيره الذي يدعو إلى الجهاد في سبيل الله، أو الذي يرثي الشهداء، أو المدن التي تغلب عليها النصارى، والمساجد التي تحولت إلى كنائس، يدل على حقيقة الصراع الديني بين الطرفين.

أما التعصب الديني لدى النصارى فكان مبكراً في الأندلس، عندما بدأت تظهر مبتكرات الإبداع العربي الإسلامي في المجالات العلمية والأدبية والاجتماعية، وعندما أيقن المنصفون من النصارى سمو العقيدة الإسلامية ومخاطبتها العقل والعاطفة، وانفاقها مع المنطق السليم، لذلك بدأوا ينهلون من منابع الصافية للحضارة العربية الإسلامية، وأدى هذا التوجه إلى نقمة المتعصبين على الاسلام والمسلمين بالنيل من الرسول (ﷺ)، فمثلاً كانوا إذا سمعوا الأذان للصلاة يقولون قولاً لا يُذكر (ابن عذاري، 1980: 97/3-98)، كذلك في نوازل ابن الحاج (نوازل ابن الحاج، 1980: 119/55؛ بوتشيش، 1998: 85) ما يكشف عن التحدي الذي قام به بعض النصارى، بسبهم الرسول (ﷺ) علناً، لذلك لم ترحمهم أحكام القضاة، إذ حكم عليهم بالقتل كلما ثبتت إدانتهم.

إلا أن التعصب الديني النصراني، والحقد الأعمى على الإسلام والمسلمين، تطور لإحساسهم بالقوة أمام ضعف المسلمين، وأمام تدفق جماعات المتطوعين من نصارى أوروبا لقتال المسلمين، وأصبحت الكراهية، والاستخفاف بالإسلام والمسلمين سياسة عامة لدى النصارى، حتى إن ألفونسو السادس بلغ من استخفافه بالمسلمين أن طلب من المعتمد بن عباد بالسماح لزوجه أن تلد في المسجد الجامع بقرطبة، وكان ذلك استجابة لإشارة القساوسة بذلك (الحميري، 1984: 288/2؛ الاستقصا، 1997: 38/2)، ومما لا شك فيه أن هذا الطلب يُعد امتعاضاً واحتقاراً للمسلمين بعامه، واستخفافاً بالدين الإسلامي بخاصة، وكان حصار طليطلة من قبل ألفونسو السادس يتسم بالطابع الصليبي، فقد اشترك إلى جانب جنود قشتالة وليون، جند من أراجون ومتطوعون من فرنسا وغيرها، من أجل خدمة النصرانية (عنان، 1988: 396). وسجل سقوط طليطلة بيد النصارى، ارتفاعاً واضحاً لحركة الاسترداد، إذ ألهب مشاعر النصارى، وكان سقوطها يُجسّم فكرة العصبية الدينية لكونها عاصمة إسبانيا قبل الفتح الإسلامي للأندلس (أبو الفضل، 1996: 118).

ثم اشتد الصراع في شبه الجزيرة بين المسلمين والنصارى بعد أن تدخل رجال الدين، وأصبحت حرباً صليبية من الدرجة الأولى، حيث وفد كثير من الرهبان والمتعصبين من شتى أنحاء أوروبا، وأثاروها حرباً صليبية ضد الإسلام، ويكفي المعرفة أن تحويل مسجد طليطلة إلى كنيسة تم رغم المعاهدة المعقودة مع المسلمين، على يد نفر من هؤلاء المتعصبين بمساعدة كونستانس ملكة قشتالة الفرنسية الأصل (أشباخ، 1958: 122؛ Chapman, 87).

ولما تحقق ألفونسو السادس 1065-1109م من جواز يوسف بن تاشفين إلى الأندلس استنفر جميع أهل بلاده، وما وراءها، ورفع القسيسون، والرهبان، والأساقفة صلبانهم، ونشروا أناجيلهم، فاجتمع له من الجلالة والإفرجة عدد كبير (الحميري، 1984: 289). وكانت هزيمة ألفونسو السادس في موقعة الزلاقة 479هـ/1086م على يد المرابطين والأندلسيين، سبباً في إثارة موجة الحماس الديني المسيحي، فبعد عشر سنوات انطلقت الحملة الصليبية الأولى نحو المشرق، وأصبحت الأندلس ميدان الحملات الصليبية الغربية، فتدفق عليها الفرسان المقاتلون من ألمانيا، وإيطاليا، وإنجلترا، وهولندا، وفرنسا، وأنداك نظر ملوك الشمال النصراني والكنيسة إلى التحالف بين المسلمين في إفريقية والأندلس على أنه بعث ديني إسلامي، وأنه لا بد أن يقابله حلف بين قوى النصرانية (عنان، 1988: 331؛ البشتاوي، 1985: 3)، فجاء الآلاف من المقاتلة من فرنسا، ومن جهات الألب لتشد أزر النصرانية في معركتها ضد الإسلام (أشباخ، 1958: 90)، وقد لعبت العصبية الدينية دوراً كبيراً في خروج النصارى من بلاد أوروبا في حملات متتابعة، للقضاء على الإسلام في الأندلس، بذلك أصبح الكفاح المسلح ضد المسلمين، العمل الأسمى لدى النصارى، حتى إن الرجل لم يكن ليحظى بالتقدير والاحترام، إلا إذا أبدى شجاعته على رأس الجند في محاربة أعداء الدين (أشباخ، 1958: 125)، وكان لانتشار الروح الصليبية بين النصارى، أن تكونت جماعات الفرسان الدينية لمحاربة

المسلمين، فقد ساعد ريموند برنجار الأول كونت برشلونة، على نزوح الفرسان الفرنسيين المجاهدين الذين ألفوا في محاربة المسلمين مطمح مثلهم الخيالية(أشباخ، 1958: 25).

كما أنشأ ألفونسو إنريكي (المعجب، 1963: 330-333؛ ابن الخطيب، 1956: 251؛ ابن صاحب الصلاة، 1987: 46، 153) جماعة دينية سميت الجماعة المحاربة الجديدة سنة 553هـ/1158م، وكان شعارها الجهاد من أجل الدين المسيحي، وألا يدخروا وسعاً في مقاتلة المسلمين (عنان، 1988: 528)، وأسس الجند الأرجونيون فرقة المجاورين- النصارى الذين يعيشون على حدود الأراضي الإسلامية ويجاورونها- التي اقتصر عملها على محاربة المسلمين فقط(أشباخ، 1958: 162-163)، ومن منطلق التعصب الديني قدم النصارى المعاهدون كل عون لملوك النصارى للقضاء على الإسلام في الأندلس(ابن عذاري، 1980: 69/4-70).

كذلك يظهر من نوازل ابن رشد أن بعض النصارى، كانوا يُظهرون الإسلام ويبطنون الكفر -النصرانية- بهدف تشويه الإسلام والقضاء عليه (ابن رشد، 1993: 1294)، ويعلل أشباخ ظاهرة غدر النصارى المعاهدين بالمسلمين رغم حريتهم بإقامة شعائهم الدينية، بكراهيتهم للدين الإسلامي، واتساع نطاق الحروب الصليبية ضد المسلمين (أشباخ، 1958: 146-147).

ثم جاء دور الكنيسة وعلى رأسها البابا، ليعمق التعصب والحق الديني لدى النصارى على الإسلام، فعندما عقد البابا أوربان الثاني 481-493هـ/1088-1099م مؤتمر كليرمونت، وأذكى الأمم النصرانية كلها لخوض الحروب الصليبية في المشرق الإسلامي، أراد عدد من الأساقفة الإسبان السفر على رأس الحملات إلى القبر المقدس، إلا أن أوربان حرّم على الإسبان الاشتراك في الحرب الصليبية في المشرق، لأن أعداء النصرانية -المسلمين- يُهددونهم في عقر دارهم، ولأنه يكفي النصارى الإسبان فخراً أن يقاتلوا المسلمين في الغرب (أشباخ، 1958: 124؛ عنان، 1988: 402)، كما أن البابا أوربان الثاني بارك حملة الكونت رامون برنجير الثاني أمير برشلونة، لانتزاع ثغر طركونة من المسلمين سنة 401هـ/1010م، وأسبغ عليها الصبغة الصليبية، وكتب إلى سائر الأمراء، والبارونات، والفرسان، ورجال الدين في البلاد المجاورة، يحثهم على الاشتراك في هذه الحملة المقدسة (عنان، 1988: 139)، بذلك بلغ التعصب الديني ذروته بعد تبني البابوية الحرب على الإسلام في المشرق والمغرب، فتعددت أشكال المساهمة البابوية لدعم هذه الحروب، فمن الإعلان بقدسية الحرب، إلى الدعم المادي، إلى منح الغفران للمشاركين، فعندما احتل الصليبيون بيت المقدس 1099م، أعلن البابا باسكال الثاني 1099-1118م الحرب الصليبية في إسبانيا ضد المسلمين (أشباخ، 1958: 139)، كما كان البابا بندكتوس الثامن 1012-1024 قد أعلن الحرب الصليبية ضد المسلمين، وعقد تحالفاً مع جنوة وبيزة، لطرد المسلمين من جزيرة سردينيا، بعد أن افتتحها مجاهد العامري صاحب دانية سنة 406هـ/1015م (عنان، 1988: 192)، كما حصل ردمير ملك أرغونة 1065-1072م من البابا إسكندر الثاني 1061-1073م عندما زار روما عام 460هـ/1068م على الإذن له بأن يستعمل في محاربة المسلمين دخل الكنائس الواقعة في مناطق كانت تابعة للمسلمين، كذلك استخدم هذه الأموال في نشر الدين المسيحي(أشباخ، 1958: 120).

كما أن البابا غيلاسيوس الثاني 1118-1119م عقد مجلساً كنسياً حربياً سنة 512هـ/1118م في تولوز، لتنظيم حملة عسكرية لاحتلال سرقسطة، ووعد البابا الفرنسيين بمنحهم غفراناً خاصاً إن هم شاركوا في الحملة(بشتاوي، 1985: 37)، وعندما تخوف ألفونسو النبيل 1158-1214م التاسع ملك قشتالة من تقدم الموحدين بقيادة أبي عبد الله بن أبي يوسف سنة 608هـ/1211م صوب بلاده، أوفد رسولاً إلى البابا إنوسانت الثالث 1198-1216م يرجوه أن يرسل الصيحة إلى أمم أوروبا النصرانية، لكي تنظم حملة صليبية ضد المسلمين في الأندلس، وقد استجاب البابا لذلك، واجتمعت جموع غفيرة بالأندلس، وكان اجتماعها تمهيداً لوقعة العقاب سنة 609هـ/1212م (المعجب، 1963: 399، حاشية رقم 2)؛ أشباخ، 1958: 357-358)، وأمر البابا إنوسانت الثالث 1198-1216م قبل موقعة العقاب(العقاب: موضع بالأندلس بين جيان وقلعة رباح، به وقعت الهزيمة على المسلمين سنة 609هـ/1212). (الحميري، 1988: 137-138) بالصوم ثلاثة أيام، التماساً لانتصار الجيوش النصرانية في إسبانيا على المسلمين، وأقيمت الصلوات العامة، وعمد رجال الدين

والرهبان والراهبات إلى ارتداء السواد والسير حفاة، وسارت المواكب الدينية في الطرقات، وألقى البابا نفسه موعظة صليبية، طلب فيها إلى النصارى أن يضرعوا إلى الله التماساً لنصر النصرانية (أشباخ، 1958: 358-360؛ عنان، 1988: 294).

كما كان للقوات الصليبية الأوروبية دور أساسي في سقوط الكثير من المدن الأندلسية بيد النصارى الإسبان، فقد شارك في حصار سرقسطة إلى جانب ألفونسو الأول (المحارب) سنة 512هـ/1118م الكونت جاستون دي بيارن وأخوه سانتولو، وكلاهما كان قد شارك في الحملة الصليبية الأولى، التي انتهت بقيام الإمارات الصليبية في الشام، كما شارك فيها كونت دي تولوز، وحشود كثيفة من البشكنس ومن قطلونية، فضلاً عن الأساقفة، وكبار رجال الدين (عنان، 1988: 90)، ويذكر صاحب روض القرطاس أنهم كانوا في أمم كالنمل والجراد (ابن أبي زرع، 1972: 162؛ ابن الأبار، 1985: 248/2؛ القلقشندي، 1978: 255/5؛ أشباخ، 1958: 144)، وفي حصار أشبونة (أشبونة، د.ت: 16؛ الحموي، د.ت: 195) سنة 541هـ/1147م من قبل البرتغاليين ساعدهم الصليبيون من إنجليز، وهولنديين، وألمان، حيث طلب ألفونسو ملك البرتغال منهم الاشتراك في هذه الحملة، لما في ذلك من ثواب لهم لمقاتلة المسلمين في سبيل رفعة الدين وتلبية نداءه (أشباخ، 1958: 226)، كما كانت الحملة على المرية بإيماء من البابا نفسه، وساعد ألفونسو السابع 1109-1126م ملك قشتالة في حصارها قوات من قطلونية (أرسلان، 1997: 142/1)، ونافار، وجنوة، وبيزة، وحشود فرنسية وحوصرت حتى سقطت سنة 542هـ/1189م (ابن الأثير، د.ت: 17/6؛ عنان، 1988: 371)، وفي سنة 585هـ/1189م سقطت شلب بيد سانتشو الأول ملك البرتغال، بمساعدة حلفائه الصليبيين من الإنجليز، والألمان (عنان، 1988: 171-174).

ما سبق ذكره من دعم البابوية للحمالات العسكرية على الأندلس وصيغها بالطابع الديني، وكبير حجم المشاركة الصليبية الأوروبية، ليس إلا بعض الأمثلة على اتساع نطاق التعصب الديني لدى النصارى عامة، واتحادهم -رغم الخلاف بينهم- على كراهية الإسلام والمسلمين، ومما يُكرس أيضاً هذا التعصب والكراهية، ما قاموا به من تدمير للمساجد، أو تحويلها إلى كنائس، والقتل والتجهير الجماعي للمسلمين، فبعد سقوط طليطلة تم تحويل مسجدها الجامع إلى كنيسة، رغم أن شروط التسليم كانت تنص على احتفاظ المسلمين بمسجدهم الجامع إلى الأبد (أشباخ، 1958: 122-123؛ عنان، 1988: 148-149)، وبعد أن استولى السيد القمبيطور على بلنسية سنة 487هـ/1014م حول مسجدها الجامع إلى كنيسة، ويتبين ذلك مما يذكره ابن الأبار في ترجمته لأبي بكر بن المعلم حمدون بن محمد أنه "تولى الصلاة والخطبة بمسجد رحبة القاضي من بلنسية بعد تغلب الروم عليها، واحتيازهم المسجد الجامع بها" (الأنصاري، د.ت: 234/1؛ بروفنسال، 1990: 193)، كما تم تحويل مسجد وشقة إلى كنيسة بعد استسلام أهلها لبيدرو الأول ملك أراجون سنة 489هـ/1096م (ابن الخطيب، 1956: 173؛ عنان، 1988: 289)، ثم حول الأرجونيون المسجد الجامع في سرقسطة إلى كنيسة سنة 512هـ/1147م (أشباخ، 1958: 144)، وبعد دخول النصارى قرطبة سنة 541هـ/1147م أقاموا بالمسجد الجامع قداً حافلاً برياسة أسقف طليطلة، وربطوا خيولهم في أروقته (أشباخ، 1958: 220، الخطيب، 1956: 332؛ عنان، 1988: 551)، ويذكر ابن بسام أن ألفونسو السادس كان قد أعدّ لمسجد قرطبة، عندما سيأخذها ناقوساً تأنق في إيداعه، وتجاوز الحدّ في استنباطه واختراعه (الشنتريني، 1997: 169)، وكان للانتصارات التي حققها النصارى على المسلمين أن كثر عدد الأرقاء في إسبانيا النصرانية، لأن جميع الأسرى في المعارك المستمرة ضد المسلمين، كان يُقضى عليهم بالرق، ويُكلفون بأشق الأعمال، ويُمنحون الحرية أحياناً بشرط اعتناقهم النصرانية، وذلك لارتباط الحرية في نظم التشريع للنصارى فقط (أشباخ، 1958: 128؛ عنان، 1988: 403).

الخاتمة:

من خلال استعراض صور التعصب الديني يظهر ما يلي:

1. إن الأحاديث التي قيلت عن فضل الأندلس والجهاد فيه ليست إلا أحاديث موضوعة لا أساس لها من الصحة ، وضعت من أجل تعزيز النعرة العصبية للأندلس، وهي تعبر عن شدة الصراع بين المسلمين والنصارى ، وتبين أهمية الأندلس للناس من أجل الاستماتة في الدفاع عنه أمام الهجمات النصرانية ، وقد اعتقد واضعي هذه الأحاديث أنهم بذلك يخدمون الدين والوجود الإسلامي في الأندلس وهذا يعبر عن سطحية التفكير وضعف الأمة الإسلامية والوجود الإسلامي في تلك الفترة.
2. كانت الكراهية متبادلة بين المسلمين والنصارى، إلا أنها في الجانب النصراني بلغت ذروتها حتى أصبح كره الدين الإسلامي ومحاربتة، سلوكاً يمارسه النصارى في إسبانيا، وأوروبا.
3. أمام التعصب الديني النصراني الذي يهدف إلى القضاء على الوجود الإسلامي في الأندلس، حرص فقهاء المسلمين على المواجهة عن طريق تنمية الشعور القومي والديني، وذلك بوضع الأحاديث المنسوبة للرسول (ﷺ)، التي تبين فضل الأندلس وفضل الجهاد فيه، وهذا من شأنه أن يعزز الانتماء إلى الأندلس، وبالتالي الدفاع عنه أمام الهجمات النصرانية، ويتبين من هذه الأحاديث ضعف وتخاذل أمراء الطوائف أمام هجمات النصارى، وعدم قدرتهم على الدفاع عن مدن الأندلس، لهذا جاءت الأحاديث لتحث المسلمين على الجهاد في سبيل الله، لأن أمراءهم تقاعسوا عن تأدية هذا الفرض الجهادي.
4. بينت الأحاديث أن هزائم المسلمين أمام النصارى، يعود إلى ابتعادهم عن الدين الإسلامي، وفي ذلك دعوة صريحة للمسلمين للرجوع إلى القرآن والسنة، حتى تتغير المعادلة بينهم وبين النصارى.
5. عززت بعض الأحاديث صحة العمل وفق المذهب المالكي في الأندلس، وفي ذلك دعوة صريحة لعدم الأخذ بغيره، ويبين ذلك وجود الصراع المذهبي بين المسلمين في الأندلس، كما يُظهر حرص الفقهاء المالكيين على عدم استعدادهم للتنازل عن المكانة التي وصلوا إليها، كونهم دعاة وحماة المذهب المالكي، وذلك بعدم السماح لأي مذهب آخر بالانتشار، والحقيقة أنه كان للتعصب لمذهب مالك في الأندلس أسباب متعددة أهمها:
 - أ. حرص فقهاء المالكية على الحفاظ على المكانة السياسية الرفيعة التي وصلوا إليها، لأن السماح بانتشار مذاهب أخرى يهدد هذه المكانة التي وصلوا إليها.
 - ب. عدم احتمال الأندلس لتعدد الفرق والمذاهب، المؤدية إلى الصراع والخلاف بين أبناء الأمة الإسلامية، الذي من شأنه أن يضعف من مقاومة المسلمين، وثباتهم أمام أعدائهم من نصارى الشمال الإسباني.
6. كان للخصوصية الأندلسية من ناحية الموقع دور أساسي في تنمية التعصب لدى المسلمين، وذلك لوجودهم في منطقة أوروبا النصرانية التي تسعى وتعمل على طرد المسلمين من الأندلس، لذلك عمل المسلمين على الحيلولة دون انتشار المذاهب الإسلامية في الأندلس والاقتصار على المذهب الواحد من أجل ضمان وحدة أهل الأندلس، لأن التعدد المذهبي يؤدي إلى التفرقة، وهم بحاجة إلى الوحدة لمواجهة الخطر النصراني.
7. كان للفقهاء دور أساسي في سقوط دويلات الطوائف، والإفتاء للمرابطين بجواز عزلهم، لتقصيرهم في حماية الدين والمسلمين لعجزهم عسكرياً عن مواجهة النصارى، كما أن وقوف الفقهاء إلى جانب المرابطين ومساندتهم، ترجع إلى ما عُرف من التعصب الديني الشديد للمرابطين، وهذا ما يُعزز مكانة الفقهاء في عهدهم، بعد أن بدأت هذه المكانة والمنزلة الرفيعة تتراجع في أواخر عصر الطوائف، نتيجة لعدم رضا الفقهاء عن النهج السياسي لهم.

8. اتسمت الدولة المرابطية والموحدية بالتعصب الشديد للدين، وعدم التسامح مع أتباع الديانات الأخرى، لأن قيامها كان على الأساس الديني، إلا أن هذه السمة لم تكن شاملة لجميع عصور خلفاء المرابطين والموحدين، ولعل عدم التسامح مع أتباع الديانات كان لا يرجع إلى تعصبهم الديني فقط، بل إلى ممارسات النصارى ضد المسلمين، وأماكن العبادة الإسلامية، حيث إن انتصار النصارى في بعض المواقع كان يدفعهم إلى استرقاق المسلمين، وإجبارهم على التنصر وتحويل المساجد إلى كنائس، لهذا تولدت ردة الفعل المرابطية والموحدية في المعاملة بصيغ التعصب الديني النصراني نفسه أحياناً.
9. كان جدل أتباع الديانتين اليهودية والنصرانية للمسلمين، لا يهدف إلى العلم والمعرفة وتصحيح الاعتقاد، بل للنيل من الدين الإسلامي وتشويهه، ويظهر مدى كراهيتهم، وتعصبهم الديني، وحقدهم على الإسلام.
10. إن إعلان البابوية للجهاد المقدس ضد المسلمين، واستنفارهم للأمم النصرانية للاشتراك في القتال، هو دعوة صريحة لتبني وتنمية التعصب الديني، من خلال الزيادة في عدد الدول النصرانية المشاركة في قتال المسلمين، ومن خلال الأعمال الوحشية التي مورست ضد المسلمين والمنافية للقيم الدينية، والإنسانية، ومن خلال تدميرهم للأماكن الدينية الإسلامية، أو تحويلها إلى كنائس فور احتلالهم لأي مدينة إسلامية.

قائمة المصادر والمراجع:

أولاً: المراجع العربية:

القرآن الكريم

إبراهيم، محمد أحمد أبو الفضل (1996م): تاريخ مدينة المرية الأندلسية في العصر الإسلامي، دراسة في التاريخ السياسي والحضاري. دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية.

ابن الأبار: أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن أبي بكر القضاعي:

_____ (1985م): كتاب الخلة السيرة. حققه وعلق حواشيه الدكتور حسين مؤنس، دار المعارف، القاهرة، الطبعة الثانية.

_____ (د. ت.): التكملة لكتاب الصلة. تحقيق عبد السلام الهراس، دار المعرفة، ودار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، الدار البيضاء.

ابن الأثير: أبو الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني (1978م): الكامل في التاريخ. طبعة دار الفكر، بيروت.

أرسلان، شكيب (1997م): الحل السندسية في الأخبار والأثار الأندلسية (وهي معلمة أندلسية تحيط بكل ما جاء عن ذلك الفردوس المفقود). "ثلاثة أجزاء في مجلدين"، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى.

أشباح، يوسف (1958م): تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين. ترجمة ووضع حواشيه: محمد عبد الله عنان، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، الطبعة الثانية.

بالنثيا، أنخل جنثالث (1955م): تاريخ الفكر الأندلسي. نقله عن الإسبانية: حسين مؤنس، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، الطبعة الأولى. بروفنسال إ. ليفي (1990م): الإسلام في المغرب والأندلس. ترجمة: السيد محمود عبد العزيز سالم، ومحمد صلاح الدين حلمي، راجعه: لطفي عبد البديع، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية.

ابن بسام: أبو الحسن علي بن بسام الشنتري (1997م): الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة. "8 أجزاء"، تحقيق: الدكتور إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت.

البشتاوي، عادل سعيد (1985م): الأندلسيون المواركة. دار أسامة للنشر والتوزيع، دمشق، الطبعة الثانية.

- ابن بشكوال: أبو القاسم خلف بن عبد الملك (1966م): *كتاب الصلوة*. الدار المصرية للتأليف والترجمة، القاهرة.
- ابن بلقين: الأمير عبد الله بن بلقين بن باديس بن حبوس بن زيري الصنهاجي، آخر ملوك غرناطة في القرن الخامس الهجري (1955م): *منكرات الأمير عبد الله المسماه بكتاب التبيان*. نشر وتحقيق: إ. ليفي بروفنسال، دار المعارف، مصر.
- بوتشيش، إبراهيم القادري (1998م): *مباحث في التاريخ الاجتماعي للمغرب والأندلس خلال عصر المرابطين*. دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، الطبعة الأولى.
- دوزي، رينهرت (1998م): *المسلمون في الأندلس*. "3 أجزاء"، ترجمة: د. حسن حبش، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر.
- الونشريسي: أحمد بن يحيى.
- _____ (1981م): *المعيار المغرب والجامع المغرب عن فتاوي علماء إفريقية والأندلس والمغرب*. خرجه جماعة من الفقهاء بإشراف محمد حجي، دار الغرب الإسلامي، بيروت.
- _____ (1957م): *أسنى المتاجر في بيان أحكام من غلب على وطنه النصاري ولم يهاجر وما يترتب عليه من العقوبات والزواج*. تحقيق: حسين مؤنس، صحيفة معهد الدراسات الإسلامية - مدريد، 5 (1-2).
- ابن أبي زرع: أبو الحسن علي بن عبد الله (1972م): *الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينته فاس*. دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط.
- الزهري: أبو عبد الله محمد بن أبي بكر المتوفى في أواسط القرن السادس الهجري (د. ت): *كتاب الجغرافية وما ذكرته الحكماء فيها من العمارة، وما في كل جزء من الغرائب والعجائب تحتوي على الأقاليم السبعة، وما في الأرض من الأميال والفراسخ*. تحقيق: محمد حاج صادق، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة.
- ابن حزم: أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الأندلسي.
- _____ (1987م): *رسائل ابن حزم الأندلسي*. تحقيق: إحسان عباس، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، الطبعة الثانية.
- _____ (1978م): *الإحكام في أصول الأحكام*. تحقيق وتقديم: محمد أحمد عبد العزيز، مكتبة عاطف، القاهرة، الطبعة الأولى.
- _____ (1975م): *الفصل في الملل والأهواء والنحل*. وبهامشه الملل والنحل للإمام أبي الفتح محمد بن عبد الكريم الشهرستاني، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت، الطبعة الثانية.
- الحميدي: أبو عبد الله محمد بن أبي نصر (1983م): *جذوة المقتبس في تاريخ علماء الأندلس*. تحقيق: إبراهيم الأبياري، دار الكتب الإسلامية ودار الكتاب المصري، دار الكتاب اللبناني، القاهرة، بيروت، الطبعة الثانية.
- الحميري: أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن عبد المنعم، جمعه:
- _____ (1984م): *الروض المعطار في خبر الأقطار، معجم جغرافي*. تحقيق: د. إحسان عباس، مكتبة لبنان، بيروت، الطبعة الثانية.
- _____ (1988م): *صفة جزيرة الأندلس*. منتخبة من كتاب الروض المعطار في خبر الأقطار، عني بنشرها وتصحيحها وتعليق حواشيها، ليفي بروفنسال، دار الجبل، بيروت، الطبعة الثانية.
- مجهول (1979م): *الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية*. تحقيق: سهيل زكار وعبد القادر زمامة، دار الرشاد الحديثة، الدار البيضاء، الطبعة الأولى.
- المراكشي: عبد الملك: أبو عبد الله محمد بن محمد بن عبد الملك الأنصاري:
- _____ (د. ت): *الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلوة*. حقق السفر الأول منه بقسمين: محمد بن شريفة، دار الثقافة، بيروت.
- _____ (1964-1965م): *حقق السفرين الرابع والخامس*: د. إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت.

- _____ (1963): *المعجب في تلخيص أخبار المغرب*. تحقيق محمد سعيد العريان، لجنة إحياء التراث الإسلامي، القاهرة. المشيني، مصطفى إبراهيم (1986م): *مدرسة التفسير في الأندلس*، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الأولى.
- المقري: أحمد بن محمد المقري التلمساني (1995): *نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب*. شرحه وطبعه وعلق عليه وقدم له: د. مريم قاسم طويل ويوسف علي طويل، بيروت، دار الكتب العلمية.
- المقدسي: شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر البناء الشامي المعروف بالبشاري (ت: 763هـ/1361م) (1906م): *أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم*. تحقيق: م. ج. دي غويه De Goege، مطبعة بريل، ليدن، الطبعة الثانية. مؤنس، حسين:
- _____ (1954م): *سبع وثائق جديدة عن دولة المرابطين وأيامهم في الأندلس*. صحيفة المعهد المصري للدراسات الإسلامية-مريد، 2(1-2).
- _____ (1960م): *صورة الأندلس*. مجلة كلية الآداب-جامعة الإسكندرية، م(14).
- _____ (1955م): *نصوص سياسية عن فترة الانتقال من المرابطين إلى الموحدين*. مجلة المعهد المصري للدراسات الإسلامية-مريد، 1(2).
- الناصري: الشيخ أبو العباس أحمد بن خالد (1997م): *كتاب الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى*. 9 أجزاء في ثلاثة مجلدات، تحقيق وتعليق جعفر الناصري ومحمد الناصري، دار الكتاب، الدار البيضاء.
- النباهي: الشيخ أبو الحسن بن عبد الله بن الحسن النباهي المالقي الأندلسي (1980م): *تاريخ قضاة الأندلس المسمى المرقبه العليا فيمن يستحق القضاء والفتيا*. تحقيق: لجنة إحياء التراث العربي، بيروت، دار الآفاق الجديدة.
- ابن سعيد: علي بن موسى بن محمد بن عبد الملك (1997م): *المغرب في حلى المغرب*. وضع حواشيه: خليل المنصور، منشورات محمد علي ببيضون، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى.
- العبادي، أحمد مختار (د. ت): *في تاريخ المغرب والأندلس*. مؤسسة الثقافة الجامعية، الإسكندرية.
- عبد الحليم، رجب محمد (د. ت): *العلاقات بين الأندلس الإسلامية وإسبانيا النصرانية في عصر بني أمية وملوك الطوائف*. دار الكتب الإسلامية ودار الكتاب المصري، دار الكتاب اللبناني، القاهرة، بيروت.
- عبد الله الترجمان الأندلسي- انسيلمود تورميذا (1983م): *تحفة الأريب في الرد على أهل الصليب*. تقديم وتحقيق وتعليق: د. محمود علي حماية، سلسلة مقارنة الأديان، القاهرة، الطبعة الأولى.
- ابن عذاري: أبو العباس أحمد بن محمد:
- _____ (1980م): *البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب*. تحقيق ومراجعة: ج. س. كولان. وإ. ليفي بروفنسال، دار الثقافة، بيروت، الطبعة الثانية، الأجزاء الثلاثة الأولى.
- _____ (1980م): *البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب*. تحقيق ومراجعة: د. إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، الطبعة الثانية، الجزء الرابع.
- _____ (1985م): *البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب "قسم الموحدين"*. تحقيق: محمد إبراهيم الكتاني ومحمد بن تاويت، ومحمد زنيير، وعبد القادر زمامه، دار الثقافة للنشر والتوزيع، دار الغرب الاسلامي، بيروت، الطبعة الأولى.
- ابن عربي: أبو بكر محمد بن عبد الله بن محمد المعافري المالكي (د. ت): *أحكام القرآن*. تحقيق: علي محمد البجاوي، دار المعرفة، بيروت. عنان، محمد عبد الله:

- _____ (1988م): *دولة الإسلام في الأندلس - العصر الثاني - دول الطوائف منذ قيامها حتى الفتح المرابطي*. مكتبة الخانجي، القاهرة، الطبعة الثالثة.
- _____ (1990م): *دولة الإسلام في الأندلس - العصر الثالث -، القسم الأول: عصر المرابطين والموحدين في المغرب والأندلس*. مكتبة الخانجي، القاهرة، الطبعة الثانية.
- _____ (1990م): *دولة الإسلام في الأندلس - العصر الثالث، القسم الثاني - عصر الموحدين وانهيار الأندلس الكبرى*. مكتبة الخانجي، القاهرة، الطبعة الثانية.
- _____ (1987م): *دولة الإسلام في الأندلس - العصر الرابع - نهاية الأندلس وتاريخ العرب المتصربين*. مكتبة الخانجي، القاهرة، الطبعة الرابعة.
- عياض: القاضي أبي الفضل عياض بن موسى اليحصبي (1998م): *ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك*. ضبطه وصححه: محمد سالم هاشم، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى.
- ابن الفرسي: أبو الوليد، عبد الله بن محمد بن يوسف بن نصر الأزدي القرطبي (1989م): *تاريخ علماء الأندلس*. تحقيق: إبراهيم الأبياري، ضمن منشورات المكتبة الأندلسية، دار الكتاب المصري، دار الكتاب اللبناني، القاهرة، بيروت، الطبعة الثانية.
- الفيروز آبادي: مجد الدين محمد بن يعقوب (د.ت): *القاموس المحيط*. المؤسسة العربية للطباعة والنشر ودار الجيل، بيروت.
- ابن صاحب الصلاة: عبد الملك (1987م): *المن بالامامة، تاريخ بلاد المغرب والأندلس في عهد الموحدين*. تحقيق: الدكتور عبد الهادي التازي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، الطبعة الثالثة.
- القرافي، محمد بن إدريس بن عبد الرحمن أبو العباس، الملقب بشهاب الدين (1987م): *الأجوبة الفاخرة عن الأسئلة الفاجرة*. تقديم وتحقيق: بكر زكي عوض، من نواذر التراث، سلسلة مقارنة الأديان، القاهرة، الطبعة الثانية.
- ابن القطان: أبو محمد حسن بن علي بن محمد بن عبد الملك الكتامي (1990م): *نظم الجمان لترتيب ما سلف من أخبار الزمان*. درسه وقدم له وحققه: الدكتور محمود علي مكي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، الطبعة الأولى.
- القلقشندي: أحمد بن علي (1987م): *صبح الأعشى في صناعة الإنشا*. شرح وتعليق: نبيل خالد الخطيب، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى.
- ابن رشد (الجد): محمد بن أحمد بن محمد بن عبدالله (1993م): *مسائل أبي الوليد ابن رشد*. تحقيق: محمد الحبيب التجكاني، دار الجيل، دار الآفاق الجديدة، بيروت، المغرب، الطبعة الثانية.
- شايندلين، ريموند (1998م): *اليهود في إسبانيا المسلمة*. في كتاب: *سلمى الخضراء الجبوسي (محرر)، الحضارة العربية الإسلامية في الأندلس، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت*.
- الشطبي: محمد المغربي (د.ت): *الجمان في أخبار الزمان*. مخطوط بدار الكتب المصرية برقم (1416).
- الشعراوي، أحمد إبراهيم (1969م): *الأمويون أمراء الأندلس الأولى*. دار النهضة العربية، القاهرة.
- ابن الخطيب: الوزير لسان الدين محمد بن عبد الله بن الخطيب التلمساني:
- _____ (1973م): *الإحاطة في أخبار غرناطة*. تحقيق: محمد عبد الله عنان، مكتبة الخانجي، القاهرة، الطبعة الثانية.
- _____ (1956م): *تاريخ إسبانيا الإسلامية أو كتاب أعمال الأعلام في من بويغ قبل الاحتلال من ملوك الإسلام*. تحقيق وتعليق: إ. ليفي بروفنسال، دار المكشوف، بيروت، الطبعة الثانية.

ابن خفاجة: أبو إسحق إبراهيم بن أبي الفتح (1979م): *ديوان ابن خفاجة*. تحقيق: السيد مصطفى غازي، منشأة المعارف، الإسكندرية، الطبعة الثانية.

الضبي: أحمد بن يحيى بن أحمد بن عميرة (1997م): *بغية الملتبس في تاريخ رجال أهل الأندلس*. تحقيق: د. روجيه عبد الرحمن السويدي، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى.

ثانياً: المراجع الأجنبية:

Dunlop, D. M. (1952): *A Christian Mission To Muslim Spain in the 11TH Century*. Al-Andalus, Vol. 17, 259–310.
AL-Andalus (1951): *Revista de las Escuelas de estudios Arabes de Madrid-Granada*. Vol. Xvll, Fasc 2, Patronato Menéndez y Pelayo - Instituto Miguel Asin.